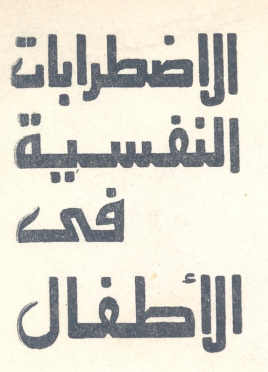


الاضطرابات النفسية في الأطفال

دكتور

محمد شعلان

أستاذ مساعد ورئيس قسم
الامراض النفسية والعصبية
كلية الطب – جامعة الازهر

الجهاز المركزى للكتب الجامعية
والمدرسية والوسائل التعليمية

الجزء الاول

الاضطرابات النفسية فى الأطفال

الجزء الأول

دكتـــور
محمـــد شـــعلان

أستـــاذ مساعد ورئيس قسم
الامراض النفسية والعصبية
كلية الطب ـ جامعة الازهر

طبعة اولـــى

الجهـــاز المركزى للكتب الجامعـية
والمدرســـية والوســـائل التعليمية

١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م

اعتــراف وتعـــريف

الى أساتذتى الذين استمعوا الى بقدر ما أسمعونى من علمهم فعلمـــونى المبادرة والبحث والتجديد ...

وتلاميذى الذين أسمعونى بقدر ما استمعوا الى ما لدى فعلمونى كيف اقول ما أريد أن أقوله ... أساتذة امتدوا رأسيا ليشملوا بعض فطاحـــل العلم وأفقيا ليشملوا البسطاء المتخفين وسط صفوف الجماهير الكادحة .

وتلاميذ امتدوا رأسيا ليشملوا بعض من علمونى وامتدوا أفقيا ليشملوا أطفالى بما اختزنوا من علم توارثوه فى كيانهم على مر العصور .

لهؤلاء أعترف بالفضل فى ميلاد هذا الكتاب . وتعريفى له أنه محاولة لفهم الاضطراب النفسى ومن خلاله التعرف على الصحة ، ولفهم الطفل ومن خلاله فهم الراشد الذى يؤثر عليه ويتأثر به والذى يمتد ليكون المجتمع المحيط بالطفل الذى هو امتداد لتاريخ الانسان بل والحياة والوجود . فاذا كنا من خلال الجزء نرى اصداء الكل فاننا بدون الكل لا نستطيع فهم الجزء ، واذا كان هدف المعرفة الكلية صعب المنال فان الصعوبة لاتبرر عدم المحاولة ، والمحاولة من حيث هى خطوة على الطريق فهى مجرد خطوة ولاغنى لها عن خطوات تتلوها أو تصحح مسارها .

لقد تطور هذا الكتاب هكذا من خلال تفاعلى مع طـــلاب علم النفس بكلية آداب عين شمس ، وكان خوفى من قتل تطوره بوضعه فى صـــيغة مكتوبة يجعلنى أتردد فى كتابته ، الا أن خوفى من أن تتبدد كل خطوة بالخطوة التى تتلوها جعلنى أجازف بكتابته ، ولعل الاعتراف بانه خطوة فى مسار متطور يجعلنى أتحمل أى نقد وأتواضع لأى مديح .. فالتطور حتمى وليس أمامنا الا ان نقبله فنسير معه ، أو نرفضه فنتحجر ونموت ، وسيان بعد ذلك من الذى يطور هذه المحاولة : الكاتب أم القارىء . فاذا كان الأول أسعدنى أن أصحح نفسى واذا كان الاخير أسعدنى أن هناك من حمل عنى الشعلة لكى انتقل بالتالى لعمل آخر .

أعترف بالفضل وأعرف من يتقبل أن يتسلم منى النتيجة بعبء الرسالة .. رسالة الاستمرار والتطوير .

اعتراف وتعريف من الذى كتب هذا الكتاب على يديه .

محمد شعلان

مقدمة

اختيار المرض

« في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضـــا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون » (١) ٠

يتحدث الطبيب النفسى سيلفانو آريتى Silvano Arieti عن مبدأ النكوص الغائى المتزايد Progressive teleologic regression فى محاولة لفهم أسس جنون الفصام ويعنى هذا المبدأ أن النكوص فى الفصام هو وسيلة تكيف ولذلك فهو نكوص هادف ، فالمريض اذا ما واجه صعوبة فى التكيف لجـأ الى النكوص كوسيلة لحماية نفسه من الموقف ، وبدلا من مجابهة معركته التكيفية فهو يتراجع الى الخلف ويمارس وجوده على مستوى اكثر بدائية ويعود الى حالة تطور نفسى مبكرة ، وهو يفعل ذلك بهـــدف التكيف مع الموقف ، الا أن النكوص يحد من قدرته على المجابهة ، وحيث أن مريض الفصام يكون قليل الحيلة بادىء ذى بدء ، اذ ان هذا التصور ذاته هو الذى جعله يلجأ الى النكـــوص كحيلة بدائية فى المقام الاول ، فهو بالتالى لايجد أمامه الا المزيد من النكوص ويدخل فى حلقة مفرغة ٠ ولذلك وصف آريتى هذا النكوص بأنه متزايد ، فالمريض كلما فشل عاد الى الخلف وكلما عاد الى الخلف زاد فشله مما يجعله يستمر فى العودة الى الخلف ٠ وهذه الآية القرآنية وان كانت تبدو لاول وهلة كما لو كانت تتعارض مع الموقف الطبى التقليدى ، وهو الموقف الذى يجعل المريض اكثر استحقاقا للعلاج واحوج الى التعليض بالصـــحة وليس الى المزيد من المرض ، الا ان الآية تحوى فى نفس الوقت درجة من احترام لارادة الانسان وحريته ، فالمرض فى بدايته اختيار ، والاختيار ملازم للحرية ، والانسان خلقه الله لطاعته فقد اعطاه فى الوقت ذاته القدرة على العصـــيان ومخالفة امره الا انه وهو يخالف امر الله باختياره سبيل المرض فانه يدفع الثمن بان يزداد مرضا ٠ ويؤكد هذا المعنى حديث شريف وهو :

« ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

● ●

وفى أسطورة أوديب اليونانية يرتكب البطل جريمته وهو لايعى جرمها ولكنه مع هذا يدفع الثمن كما لو كان واعيا مختارا وكأنه تطبيق للمبدأ القائل بأن الجهل بالقانون لا يبرر الجريمة ٠ وعلى نفس المنوال فان آلام المرض هى

---

(١) سورة البقرة ٠

الثمن والعقاب الذى ندفعه لاختيارنا سبيل المرض ، واعتذارنا بالمرض لن يخفف من حدة ألم الثمن ٠

قد يقبل البعض هذا التفسير بالنسبة للامراض النفسية ولكن مابال الامراض العضوية ، حيث اكتشف العلم اسبابا مادية ملموسة لها ٠ اين يقع الاختيار هنا ، ولماذا العقاب على ذنب ليس للانسان فيه دخل ؟ نجد هنا ان الاسباب العضوية ليست الا احد العوامل العديدة التى تفسر لنا ظواهر المرض ٠ ولعل أبسط مثال هو مرض الزكام المنتشر فاننا نعلم ان الزكام سببه فيروس وهذا الفيروس منتشر في الجو خاصة في وجود مريض يحمل العدوى وينشرها حوله ، الا ان عدد المعرضين لهذا الفيروس الذين ينقل اليهم محدود بينما الغالبية تقاوم الفيروس ولاتمرض وهنا سنضطر الى البحث عن عوامل اخرى عدا العوامل العضوية (مثلا كثافة الفيروس وحالة الجسم عند دخول الفيروس اليه)

ولكننا نحتار مرة أخرى ولا نجد مفرا من الاعتراف بأن الحالة المعنوية او النفسية التى يكون عليها الفرد ابان تعرضه للفيروس او قبلها او بعدها بقليل تتحكم فى قدرة الجسم على مقاومة الفيروس او الرضوخ له ٠ الا أن هناك امراضا اخرى غير الامراض المعدية اخذت تتكاثر وهى ماتعرف الان بأمراض الحضارة واهمها تصلب الشرايين وما يترتب عليه من أمراض فى القلب والجهاز العصبى وامراض التنفس وامراض المفاصل وامراض الحساسية والامراض الجلدية ٠ وكل هذه الأمراض لانستطيع حتى الان أن نحدد لها عاملا فاصلا مثل الجرثومة او الفيروس ، وهنا مرة اخرى نرى ارتباطات بين انتشار هذه الامراض والحالات النفسية لهؤلاء الافراد والتى تأخذ احيانا صورة الوباء النفسى ، أى المرض النفسى الذى يصيب حضارة بأكملها ، بل ان بعض الامراض التى قد تبدو لاول وهلة بلا علاقة بالصحة النفسية مثل السرطان قد وجد ارتباط مابين انتشارها او سرعة تطورها وبين العوامل النفسية للفرد المصاب ٠ وهنا مرة اخرى نستطيع ان نرى كيف يدخل فى المرض العضوى عنصر الاختيار ٠ فالانسان يختار طريقته فى الحياة ووهو لذلك مسئول بطريقة او اخرى عما يحدث له وهو يدفع ثمن اختياره بأن يمرض ويزداد مرضا ٠

قد يبدو أن فكرة حرية الاختيار فى المرض فيها من القسوة على المريض ما قد يتنافى مع روح الطب والعلاج علاوة على ما قد توحى به من تشاؤم ٠ الا ان العكس هو الاصح فان الذى يختار المرض بحرية يستطيع اذا وعى حرية اختياره بواسطة العلاج النفسى مثلا ان يعيد الاختيار ويختار الصحة ٠

الطفل وحرية الاختيار :

ولكن اذا كان هذا الكلام ينطبق على الكبار فما ذنب الصغار ؟ ان الصغار هم عادة الطرف الأضعف فى العلاقة مع الكبار ، فطفل الانسان عاجز بيولوجيا ويحتاج الى الاعتماد العضوى على أبويه لكى يعيش ، فهو لا يستطيع ان يطعم نفسه أو يحمى نفسه من المخاطر الا بواسطة الكبار وهو لهذا تحت رحمتهم

واختياره محدود فكيف اذن يتحمل نتائج اخطاء أبويه ؟ في الواقع ان الطفل يتمتع بقدر من التلقائية والقرب من طبيعته التي تجعل مشاعره وسلوكه أصدق من مشاعر أبويه الا أنه بصفته الطرف الأضعف في العلاقة فهو يقتل هذه البراءه والتلقائية ويبيع نفسه لكي يتجنب شر الكبار ويسعى الى ارضائهم ، وبقتل هذه التلقائية فهو يرتكب أول مخالفة لاحساسه الصادق ، أي أول عصيان، ولعله هنا يكرر خبرة آدم في أكله من الشجرة المحرمة . ان الطفل بهذا العمل قد مارس حريته وهي حرية الخطأ ويظل يدفع ثمن هذه الخطيئة بقية عمره وهذه الخطيئة هي انه باع نفسه للكبار بأن تركهم يفرضون عليه ما يخالف طبيعته . وليس في أمر حرية الاختيار عند الطفل كل هذه الغرابة في ضوء ما يعايشه المرضى من خلال خبرات تحليلية عميقة أو حالات ذهانية مؤقتة وتحت تأثير العقاقير المهلوسة مثل L.S.D. 25 انهم في هذه المعايشة يعودون الى حالات مبكرة في نموهم قد تصل الى ما قبل الولادة وأثناءها ويتذكرون في تلك اللحظة الصراع بين الرغبة في البقاء في سلام وأمن وحماية الرحم الذي يمثل في الوقت ذاته حالة الموت ، وبين الرغبة في الخروج واستنشاق أول نفس للحياة وهي خبرة تحوي الاحساس بالارادة والاصرار . فهو يعني أن ما قد يبدو من الخارج كعملية فسيولوجية وطبيعية (كالتنفس مثلا) هو في الاصل عملية اختيار وارادة . والكبار وهم يفعلون ذلك ازاء ما بداخلهم من طفلية او تلقائية انما يخفون التلقائية في داخل انفسهم ويقتلونها ولا يحتملون أي تذكرة او ايقاظ لما بداخلهم مثلما تثيره تلقائية اطفالهم فهم حين ينجحون في هذا القتل ، انما يدفعون الثمن ايضا بان يبقوا تلقائيتهم مقتولة كما أن أطفالهم ، من حيث انهم يستمرون في الرضوخ لهذا القتل ، انما هم ايضا في توحدهم مع الكبار يساهمون ايضا في قتل تلقائيتهم وكلاهما يدفع الثمن .

ان الطفل في الانسان هو التلقائية وهو القلب النابض ، وهو الذي يرتكب ضده على مر العصور وفي شتى الحضارات جرائم القتل بصور مختلفة . واذا كان في ذلك حكمة وهي أن الانسان كان ولابد أن يدفع ثمن فقدانه لبراءته بأن يستمر في قتل هذه التلقائية (في قلبه مرض وزاده الله مرضا) الا ان صوت الطفل لا يموت بل انه ملازم له خافت تارة وصارخ تارة اخرى ، يقتل ثم يولد من جديد ثم يقتل مرة أخرى من جديد .

ان الطفل على مر العصور يطالب بحقه في الحياة واذا كانت ظروف الدنيا حتى الآن قد فرضت على آدم العمل المضني وقتل التلقائية فان التقدم العلمي الذي نتج عن هذا العمل المضني قد فتح امام الانسان مجالا جديدا لان يعيد النظر في حكمه على الطفل وان يفرج عنه او يقلل من الحجر عليه فبواسطة هذا التقدم التكني أصبح من الممكن ألا يكون الانسان عبدا للعمل او للآلة بل يستطيع ان يسخرها لخدمته بحيث يترك لها العمل المضني وهو يتفرغ للحياة والتطور وأن يعيد لتلقائيته حق الظهور .

واذا كانت هناك حكمة تاريخية في قتل الأطفال تتمثل في أمر الله تعالى لابراهيم عليه السلام ان يذبح ابنه فان تكملة الحكمة هي ان الله قد أعفاه من

هذه التضحية بأن جعله يقتل كبشا بدلا منه فالانسان فى بداية تطوره الحضارى كان يطابق بين ما هو طفلى وما هو حيوانى فقتل الاثنين معا فى سبيل الحضارة ثم اصبح قادرا على ان يفصل بين الاثنين واكتفى بقتل ما هو حيـــوانى فقط (الضحية) مبقيا بذلك على الحضارة بان وحد بين ما هو طفلى (الابن) وماهو حضارى (الأب) .

واذا كانت حضارتنا مازالت تسعى لتطبيق وتعميم القيم الخلقية التى جاء بها الانبياء الاولون فاننا مازلنا بطريقة رمزية نقتل أولادنا بدرجات متفاوتة وذلك للابقاء على قدر من الحضارة وكبح الغرائز الآن أن التقدم المادى الذى نحن مقبلون عليه قد يحقق امكانية الافراج عن تلك الغرائز المكبوتة دون خوف يذكر على الحضارة يجعلنا نستطيع ان نقول اننا مقبلون على عصر تحرر على عدة مستويات فقد يعنى تحرير الضعيف من سيطرة القوى ، والفقير من استغلال الغنى ، والطفل من قتل الأب . ومن هنا ظهر الاهتمام فى العصر الحديث بصحة الطفل النفسية وظهرت حركات لتحرير الطفل Children's Liberation وحركات التحرير لكل ماهو مستضعف أو مقهور مثل تحرير المرأة women's Liberation وتحرير المجانين insane Liberation وغير ذلك من الحركات التحررية . وهى حركات لاتنفصل عن بعضها أو عن مثيلاتها على المســـتوى الاجتماعى بصفة عامة فكثيرا ما تلتقى هذه الحركات مع حركات تحرير السود فى الولايات المتحدة وتحرير الفيتناميين من سيطرة الولايات المتحدة وتحرير الدول النامية من الدول الاستعمارية وتحرير الامة العربية من تســلط الدول الكبــرى وعملائها . هنا حقا يصدق القول بأن الحرية لاتتجزأ .

واذا كان هذا الكتاب مساهمة متواضعة فى هذا الاتجاه أى تحرير الطفل كجزء مكمل لحركة التحرير بصفة عامة فانه لا ينبع من منطلق الدفاع عن الطفل من مركز متعال او موقف ابوى تجاه الطفل الضعيف المقهور انما ايمان بأن الطفل والضعيف والمقهور والمظلوم هم جزء من الكيان الانسانى ، والكيان الانســـــانى وحدة متكاملة لا يجدى تحرير جزء منها واغفال جزء اخر . فالانسان طالما هو يستعبد أخاه الانسان – سواء كان ذلك طفلا او امرأة أو دولة نامية او اقلية سوداء – فانما هو يستعبد جزءا من نفســه ، فهو بقبوله امكانيــة اســتعباده لآخر انمـا هو يقبـل بالضرورة امكانيـة أن يكون هو المســـتعبد . (بفتح الباء) الا انه بدلا من مواجهـــة هذه الحقيقة وحـله لها حــلا جــذريا فهو كثيرا ما يلجـــأ الى الحــل القهرى بأن يبقى على طبيعة العـلاقة كما هى – أى مســتعبد ومســتعبد أو سيد ومسود – مع محاولته ان يصل الى المقعد الاعلى ، اى أن يكون هو السيد وليس المسود ، وهو هنا لم يحل المشكلة نفسيا أو عمليا فهو لم يفعل الا أن أنكر فى نفسه الجزء الضعيف وأسقطه على أخيه الانسان وقال عنه « هذا هو المسود وليس أنا » ونسى ان صفة السيادة هنا مرتبطة ارتباطا كليا بصفة العبودية فهو لا يستطيع ان يكون سيدا الا لانه جعل من غيره مسـودا وهو بهذا عبد لعبده بقدر ما يكون عبده عبدا له ، وان كان انينه من هــذه العبودية اقـل مما هو الحال فى حالة ما لو كان هو العبد وهو أمر كثيرا ما ينساه الثائر عـلى الظلم حين يعتقد ان الظلم سببه الظالم وما عليه الا ان يقضى على الظالم حتى

ينتهي الظلم وينسى التاثر ان الظالم ايضا يتالم ويدفع ثمن ظلمه بل ويتمنى في دخيلة نفسه أن ينقذ من ظلمة .

اذن فالمنطلق الذى نبدأ منه هنا ليس ان الطفل مظلوم ازاء الكبير ولا أن حل التناقض هو أن يتخلص الطفل من سيطرة الكبير عليه فيعم السلام ولكن المنطلق أن العلاقه الموجودة حاليا بين الطفل والكبير مع ما فيها من تناقض مؤلمة لكليهما وان كانت صرخة الطفل ــ وهو الطرف الاضعف ــ هي الاعلى واحتياجه للمساندة هو الاعظم .

وهنا يأتى دور المساهمة من جانب من يهتم بالصحة النفسية للاطفال من أطباء نفسيين وأطباء أطفال بصفة عامة واخصائيين نفسيين واخصائيين اجتماعيين ومدرسين وغيرهم ممن يعملون فى مجالات التربيه والارشاد . بل وحتى رجال السياسة والاقتصاد . فاذا اعتبرنا ان علاقه الطفل بالراشد . أو الضعيف بالقوى ، أو المظلوم بالظالم ، أو ماشابه ذلك من علاقات ، هى فى الواقع علاقات قوة ، يكون فيها البقاء للاصلح (وقانون الصلاحية حتى اليوم هو قانون القوة إى البقاء للاقوى) فان هناك من الاقوياء من يملكون درجة بعد النظر تجعلهم بحسبة عقلية يرون أن استمرار الوضع كما هو غير مجد ليس فقط من الناحية النفسية كما بينا ولكن من الناحية العملية . فالضعيف والمظلوم والمقهور هو فى النهاية مثل من ليس لديه شىء آخر يفقده وهو لذلك اكثر حرية فى الحركة « الحرية هى الا يكون لديك شىء آخر تفقده » وان هؤلاء بفضل ضعفهم وعددهم هم فى الأمد الطويل الأقوى والأبقى وأنهم مهما طال صبرهم فان مآلهم الى الثورة ضد هذا الوضع الظالم الذى يعانون منه وهم وان كانوا شركاء فى الالم فى هذه العلاقة الثنائية بين القوى والضعيف الا انهم يتحملون الجانب الاكبر من الالم وهم لهذا ، لامحالة ، أول من يثور وآخر من يكف عن الثورية ، اذ ليس لديهم الكثير مما يخسرونه . هذه الفئة من الاقوياء ذوى النظر البعيد من المثقفين والعاملين فى المهن التربوية بجميع اوجهها هم الاقدر اذن على الوقوف بجانب الضعفاء فى ثورتهم ، لا من منطلق العطف المتعالى فحسب ، ولكن بدافع من المصالح المشتركة ايضا ، اذ أن قوتهم تزداد بفضل مساندتهم الضعيف ازاء القوى رغم انتمائهم الى الاقوياء . وهم اسوة برجال القانون أو الشرطة الذين ينتمون الى الاقوياء ويدافعون عنهم ولكنهم من جانب آخر يستمدون قوتهم من مساندتهم للضعفاء عادة ازاء جبروت الاقوياء وتجنبا لانفجار الضعفاء وآخمادا لثوراتهم (...)

ان مسئولية هؤلاء العاملين فى حقول التربية والارشاد والسياسة هى فى مساندة الطفل ازاء الكبير تجنبا لانفجار الطفل . وهو موقف ذو حدين فقد يكون مجرد مهادنة لثورة الطفل ومحاولة لاخمادها خدمة للقوى الغالبة ومن جانب آخر قد يكون توجيها لهذه الثورة وتحويلا لها نحو منهج بناء فتصبح ثورة بدلا من مجرد تمرد . والفرق شاسع فالثورة هى محاولة صادقة للتغيير الجذرى بينما التمرد هو محاولة براقة المظهر مصيرها الانطفاء .

وبما ان هذا كتاب علم وليس كتاب دعاية او منهجا لثورة فان وظيفته

هى ان يلقى الاضواء ويصف الحقائق ولكل قارىء حرية استخدامه للاتجاه الذى يختاره . وان كان هذا لا يعنى ان الكاتب كانسان غير ملتزم او سلبى الموقف ، ولكنه يسعى قدر المستطاع الا يخرج عن المنهج العلمى والموضوعية فى عرضه للحقائق . وهو اذ يشير الى السياسة والدين – وكلاهما من المواضيع الحساسة – فان ذلك من منطلق منهجه ان الجزء لا يفهم الا من خلال الكل وان الارتباط بين جوانب الحياة المختلفة جذرى وان كل موقف ينبعث من فكر يشمل علاقته بالكون حيث يطرح التساؤلات الجذرية عن سبب وجوده وعن الخلق والخالق وعن الحياة والموت ، وهى الاسئلة التى تحدد موقف صاحبها الدينى على حقيقته وكذلك فى كل موقف او تعبير عن علاقة الفرد بالآخرين والتى تحكمها علاقات القوة والصراع وهى التساؤلات التى تعبر عن موقف صاحبها السياسى .

فالعالم مهما كان محايدا كعالم لايستطيع ان يتنصل من موقفه كانسان ازاء اللانهائى أى أن يكون له دين ولا من موقفه كانسان ازاء المجتمع أى أن يكون له موقفه السياسى . واذا استطاع لفترة ان يعزل نفسه عن الكون والمجتمع فى معمله ويتجنب السياسة والدين فانه سرعان مايواجه الحقيقة وهى انه لا مناص له من اتخاذ موقف حتى وان كان يتجنب رؤيته وتحمل مسئوليته عن كل مايحدث له ، وان كان يهرب من تلك المسئولية بتخفيه وراء دور العالم . واذا استطاع المجتمع الذى يستخدم هذا العالم لأغراضه بأن يعمى عينيه بالاغراءات الماديه – بالسلطة والمال والمركز الاجتماعى المرموق – لكى يتجنب مواجهة حقيقة مسئوليته فيتحول الى خادم للقوى السائدة فى المجتمع فان العالم كثيرا مايواجه تلك الحقيقة لحظة أزمة وجودية يغير خلالها تحديد موقفه مما هو فيه من دنيا وآخرة أى يعى أنه صاحب سياسة ودين . وقد يستطيع العالم ان يتجنب هذه المواجهة الذاتية لفترة تطول او تقصر يساعده فى ذلك أفيون الشهرة والنجاح والسلطة والمال فيلهيه هذا التكاثر عن لحظة المواجهة حتى تأتى كالقارعة فيعيد تقييم موقفه (الدينى والسياسى) ويختار بين المواجهة او ان يزداد تشبثا بماضى ويزداد لهوا بالتكاثر . أى ان العالم اما أن يزداد فعالية كمواطن وكعضو فى المجتمع وكانسان او يزداد خوفا وانسحابا وراء المزيد من الاقنعة ، او فى كلمتين بين أن يحيا أو يموت . وحينما يخلع العالم هذا القناع او ينهار القناع فيواجه حقيقة انسانيته وأنه ليس مجرد دور يؤديه فانه يواجه مسئوليته وحريته ويلتزم من هذا المنطلق بموقف ازاء الحياة من موقع وجوده فى لحظة ما .

وهكذا فان هذا الكتاب ، كمحاولة علمية ، لايملى موقفا على قارئه وانما يتعمد اثارة التساؤل بل والحيرة لكى يدفعه باستمرار الى اعادة النظر ومواجهة مسئوليته كفرد تجاه نفسه وتجاه أسرته ووطنه وانسانيته مكيفا نفسه لكل لحظة وبقعة ومتطورا متغيرا مع حركة الحياة وتغيرها .. لكى يكون متكيفا متطورا معا ، ومحافظا وثائرا معا ، وعالما وانسانا معا ، وطفلا وراشدا معا : ذلك هو الانسان الصحيح المتكامل الذى يجمع بين الاضداد ويعلو فوقها .

منهج هذه الدراسة بين الكيف والكم :

تعودنا ان يكون العلم مساويا للمعلومات وظننا أنه كلما زاد كمها فقد زاد كم العلم الا ان العقول الالكترونية فاقت الانسان فى قدرتها على الاحتفاظ بكم هائل من المعلومات فى ذاكرتها واعادتها بدقة وبسرعةمتناهية بلوترجمتها وهى مع ذلك ليست الا أدوات فى يد العالم تخدمه ولاتستخدمه · ومن قبل العقول الالكترونية فكم من عبقرى كان تاريخه الدراسى مرصعا بالفشل ، فهذا آينشتاين Einstein وهذا تشرشل Churchill وهذا العقاد وغيرهم حفل تاريخهم الدراسى بالفشل والكسل مع ذلك فاننا مازلنا نقيم الطالب بقدرتهعلى جنى المعلومات واعادة « كرها » فى ساعات من الزمن تسمى بالامتحانات يحدد مصيره بناء عليها بليحدد رزقه ، فبقدر خضوعهلعمليات جنىالمعلومات وغسل المخ بقدر رضاء الممتحنين عنه وتقديرهمله باعطائهماياه تذكرة دخولالى الفئات المميزة فى المجتمع · فالمفضلون عند مرحلة التوجيهيه يذهبون الى الجامعات ويوزعون على الكليات حسب عائد كل كلية من حيث المكسبالدنيوى (المادة والسلطة والمكانة فى المجتمع) وينطبق هذا ايضا على المواقف التىيمليها الواقع حيث يكون الممتحن ناخبا او رئيسا ويكون خضوع الطالب او من فى حكمه لقيم صاحب القرار هو المحك الذى يقيم به ·

وتمشيا مع ما ذكرنا من أن كل موقف فى الفكر أو العلم هو موقف فى الدين او السياسة فان هذا المنهج فى التعليم ليس الا تعبيرا عن اوضاع سياسية ودينية معينة ·

فالقيمة السياسية السائدة فى هذه الحالة هى الطاعة العمياء والقدرةعلى حشو المعلومات بدون تفكير أو مناقشة وبخضوع لسلطة هرمية ممثلة فى الاساتذة او الممتحنين او الناخبين او الرؤساء · والذى يخضع لهذه القيمة هو الذى يجنى اعلىالدرجات ويحصل على اكبر المزايا بالتالى · كما انالقيمة الدينية السائدة هنا جوهرها الاشراك فتارة يعبد البقرة الذهبية بجانب عبادة الله واحيانا بالتبادل معها فيقدس قيمة المالوالمكسب ويسعى وراءها ويبيع المرء نفسه وضميره لها فيقتل قدرته على التفكير المستقل ويسخر نفسه لمتطلبات البقرة الذهبية وتارة يشرك بالله او يستبدل به فرعون الجالس على عرش السلطة والذى يكاد ينادى جهارا بانه ربنا الاعلى ، وقد يعطى لعبادة الله المجاملة اللفظية معلنا ولاءه لله او الدين او غير ذلكوهو فى حقيقة الامر يتصرفكما لو كان هو فعلا فرعون وربنا الاعلى ، ومادام لن ينقص من واقعه شىء فلا ضرر من الولاء اللفظى دون الفعل ·

انطلاقا من تلك المعتقدات الدينية والسياسية فان التعليم مازال يعانى حتى الان من مفهوم الكم فى المعلومات وقدرة الطالب على ان يكرر ما يملى عليه وأن يتابع ويتعامى وأن يقتل قدراته وتلقائيته · وينتظر من اى كتاب علمى أن يكون مجرد اضافة كمية أخرى وهى غالبا ليست باضافة بقدر ماهى مجرد اعادة لترتيب المعلومات تاكيدا للقيم السائدة واستشهادا بالارقام والمقاييس على صحتها والعلم فى هذه الحالة لايقدم جديدا وهو لهذا قاصر · انه يخدم

الواقع ويساعد على ابقائه متجمدا وهو موقف سياسي وديني في حـــد ذاته وكثيرا ما يكون الاختلاف بين كتاب وآخر ان أحدهما يحوى كما من المعلومات مرتبه بطريقة ما والآخر يضيف كما آخر او يقلله (اعترافا بتدهور قدرات الطالب كوعاء لتخزين المعلومات او وضوحا لكتبله في التجميع او دخولا في مناقضة لكسب رضائه او اكتفاء باعادة ترتيب ما هو موجود) . وهذا كاتب يرى ان الشرب يجب ان يبـــدأ بالقله الاولى ثم الثالثة وآخر يصر على ان يكون الترتيب الثانية تم الثالثة ، وآخر يرى ضرورة وجود قلة رابعة او ابريق (كما في قصة التركى والقلل) .

واذا كان التجديد مطلوبا فلعل الحاجة اليه اكثر الحاحا فيمـــا يختص بمفهوم التعليم ليتغير الاهتمام بالكم في المعلومات ، الى الاهتمـــام بالكيف ، ويكون المنطلق في هذه الحالة ليس هو كمية المعلومات التى يجنيها الطالب بقدر ما هو القدرة على التفكير والمناقشة والخلق ولهذا يجب ان يجمع الكتاب العلمى بين الاتجاهين فاذا كان هذا التفكير وذلك الخلق لا يأتيان في الوضع الامثل الا من خلال عملية الممارسة ذاتها ، اى ممارسة التفكير والخلق والمناقشه، فماهو دور الكتاب او المحاضرة بوجه عام ؟ هنا نجد تصارع الاضداد الكيف والكم ــ يولد لنا جماعا يحويهما معا فالكتاب يجب الا يكون مجرد اضافة كمية للمعلومات فحسب ولكنه يستطيع بدرجة ما أن يكون مثيرا للتفكير ومحاولة لانشاء حوار ولو بدا في شكله واطاره العام كما لو كان القاء من جانب واحد اى انه مطالب بان يعطى الطالب قدرا من الكم من المعلومات يستند اليه ولكن على ان يكون مصاغا بكيفية تجعله مثيرا لعقل الطالب وانفعاله وفضـــــوله ، فمن جانب تكون الافكار والمعلومات مرتبة مسلسلة مبوبة ومن جانب آخر تنبعث الكلمات من وجدان الكاتب بفيض من الانفعال . ولعل المقارنة تكون مع طريقتين للتفكير همـــا وظيفتان لفصى المخ ، كما اظهرتهما بعض الابحاث الحديثـــة في هذا المجال فالفص الايسر في المخ يسيطر على الجانب الايمن من جسم الانسان وهو عادة الجانب المتغلب في القوة والتحكم ولذلك يعرف بالفص (او النصيف) المتغلب dominant تتركز فيه وظائف الكلام والقدرات اللفظيـــــة والتفكير المنطقى المتسلسل التحليلى وغير ذلك بينما الفص (النصيف) الايمن الذى يسيطر على الجانب الايسر من الجسم وهو عادة الجانب المنحسر والاضعف والذى كان يعتقد انه لا يؤدى وظيفـــة مختلفة كيفيا عن الفص الآخر الا انه ثبتت ايجابية وظيفته من حيث انه يحوى وظائف فكرية ذات نوعية مختلفة مثـــل التفكير الحدسى والفنى والموسيقى والقدرة على التجميع والنظرة الكلية وقد لوحظ هذا الاختلال في بعض الحالات التى اجريت فيها عمليات قطع فيهـــا الجسم الصلب Corpus Callosum يوصـــل بين الفصين . ويمكننا ان نلخص وظيفة الفصين بأن الفص الايسر يمثـــل التفكير العلمى بينما الفص الإيمن يمثل التفكير الفنى .

وهاتان الوسيلتان للتفكير وان كانتا تتمركزان في كل فص على حدة الا اننا قلما نستخدم احدهما باستقلال تام عن الآخر وان كانت الغلبة كثيرا ما تكون لاحدهما او بينهما بالتتالى فالعالم يحتاج الى الحدس والالهام لكى

يكتشف ولكنه عندما يريد ان يبرهن على اكتشافه ويترجمه الى تفاصيل عملية والفاظ منطقية ومفاهيم محدده فهو يحتاج الى الفكر المنطقي المرتب . وحين يطغى فص على آخر بصورة مبالغ فيها فاننا نجد اختلالا فى توازن وسيلتى التفكير ، مما قد يعوق التكيف لى قد يؤدى مع الوقت ومع سيطرة جانب على آخر الى رد فعل وثورة من الجانب المغلوب على أمره ، الامر الذى قد لا يعيد التوازن بقدر ما يعكس ميزان السيطرة فيعيد الكرة مثل حركة البندول . ولذا كان من ايجاد نوع من التوازن بينهما .

اذن فالكتاب العلمي لكى يكون متكاملا لابد له ان يوازن بصيغة متكاملة بين النمطين فيكون متسلسل الفكر ومنطقى الترتيب ودقيقـــا ولكن ليس للدرجة التى تجعله جافا مر المذاق يخلو اســـــلوبه من الجمال الذى يميز الاعمال الفنية وان يكون حدسى الاستنتاجات ، متشعب الافكار والمواضـــيع مثيرا لتداعى افكار القارىء وكلن ليس بدرجة تجعله يتوه ويغرق فى الظلمات والمتاهات .

ونستطيع أن نطور هنا الجماع هكذا: فالتفكير العلمى المنطقى متسلسل وهادف ، النقطة فيه تتلوها نقطة مرتبطة بالتى قبلها .

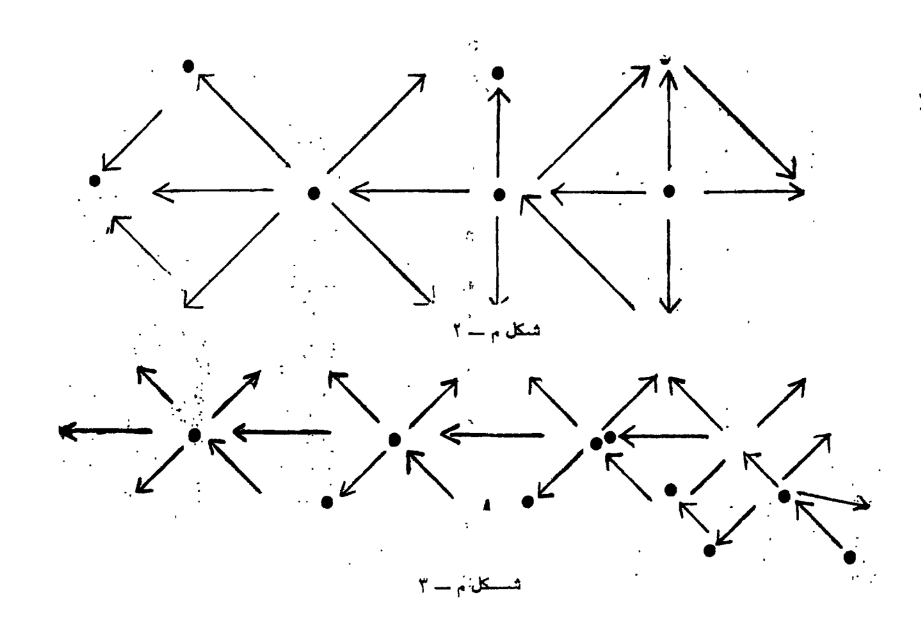
(شكل م - ١)

بينما التفكير الخلاق متشعب والافكار تتناثر ذات اليمين وذات اليسار دون اتجاه واضح او ترتيب (شكل م - ٢)

والجماع بينهما يشمل الخط الفكري ذو الاتجاه مع الســـماح لبعض التفرعات فى الطريق ، والتى تسمح بتغير الاتجاه الرئيسى عند اللزوم (شكل م - ٣)

بهذه الطريقة يمكن للقارىء (والكاتب فى المقام الاول) ان يلتـــزم باتجاه محدد لموضوعه ولكنه فى نفس الوقت يترك الفرصة لدخول الافكـــار الجانبية التى تسمح بالخلق والتجديد وتشجع القارىء بل وتدفعه بالتالى الى التفكير المستقل المكمل للخط الرئيسى مع استطاعته التطبيق فى مجـــالات الحياة المختلفة .

هذا اذا نظرنا للكتاب كأساس للوعاء العلمى للطالب ، وهو ولاشـــك أضعف الايمان اذ هو مهما كان مثيرا للفكر والمناقشة للقارىء ، وهو وان كان يعتبر حوارا يحدث التغيير ولكنه لا يستقبل ماقد يحدث فيه التغيير الامـــر الذى يجعله الى حد كبير حوارا من جانب واحد .



شكل م – ٢

شكل م – ٣

أما المحاضرة فقد تبعد خطوة عن هذا الاطار وان بقيت بعيدة عن اطار الحوار ذى الجانبين ، فالمحاضر يلقى ولا يسمع الا فى حدود الإسئلة والتعليقات المحدودة أو على أقل تقدير تعبيرات الوجه ٠ والافضل منها هو الندوات والمناقشات المحدودة العدد ولعل الازهر قديما كان يعتمد على هذه الطريقة ، فمن خلال الاخذ والرد والمناقشة المباشرة واللقاء القريب بين الطالب والاستاذ يثار فكر الطالب وتتفجر امكانياته الخلاقة ويشعر بالندية ازاء استاذه فهو يتفاعل معه ولايقف منه موقف المستقبل السلبى أو المفعول به ٠ الا أن هذا النمط رغم تقدميته فهو مازال يضع الاستاذ والطالب على طرفين أحدهما أعلى من الثانى لا يصل الى الندية الحقيقية ، وهو امر لا مفر منه طالما ان احدهما يملك من العلم اكثر من الآخر ٠ ولكن الاتجاه نحو التحرر بدافع من ألم الصراع بين الغالب والمغلوب يجعلنا نهدف الى تحقيق خطوات نحو تقريب المسافة بين الطرفين آملا فى الوصول الى علاقة تساو وندية ، فتتغير العلاقة من فاعل ومفعول به بين الاستاذ والتلميذ الى تفاعل متبادل وهذا يقترب من الحدوث كلما جعلنا المشكلة المطروحة هى سيدة الموقف والمعركة فى مواجهة المشكلة من قبل اثنين ، وهما الطالب والاستاذ معا لا يميز احدهما عن الاخر الا فيما أوتى من علم وخبرة (الاستاذ) او من فضول وتساؤل وحيرة وثورية (الطالب) وهما جانبان لاغنى عنهما فى الفكر والفعل ومكملان لبعضهما ٠ فالاختلاف هنا اصبح مصدرا للاثراء المتبادل وليس مبررا لتعالى طرف على آخر والمساواة والندية هنا لا تعنى بالتالى التطابق مثلها مثل الذكر والانثى اللذين خلقهما الله من نفس واحدة ٠

واذا كان هذا الاطار ممكنا فى اللقاء المباشر بين الطالب والاستاذ فهل يمكن للكتاب ان يتجاوز الاطار الذى تمليه عليه طبيعته ؟ فاطار الكتاب من حيث الشكل هو اطار الفاعل ازاء القارىء الذى يتلقى ويستقبل ما هو مكتوب دون ان يغير فيه بردوده عليه ٠

الا انه رغم هذا الشكل الذى يفرض على الكتاب هذا الموقع التسلطى فانه مع ذلك من الممكن ان يكون الكتاب من حيث المحتوى وطريقة التقديم بعيدا بدرجة ما عن هذا الشكل التسلطى ، فيطرح الافكار بدون صفة القطع أو الآراء النهائية ، بل يطرحها كالتساؤلات التى تحير الكاتب وتجعل القارىء يشاركه الحيرة والبحث ٠ وعلى الجانب الاخر لايكون التسلسل الفكرى متحجرا ، بل يترك درجة من التنوع تجعل القارىء لايخضع تفكيره لخط محدود وانما يتداعى مع الكاتب ويضيف هو بالتالى افكارا من عنده ٠

ولذلك فان الكاتب لا يعتذر عن انعدام التحديد الواضح وقلة النظام والدقة وعدم الترتيب والترقيم كما انه يتجنب النصح والوصفات القاطعة فلا مجال لحديث عن كيفية معاملة الطفل وكيفية جلب السعادة للاسرة ، فكل فرد عليه ان يكتشف طريقته الخاصة فى ذلك ٠ فالعلم الحقيقى هو العلم الكلى المتكامل الذى يدمج المعرفة بالوجود ٠ وهو أقرب الى علم الحكماء منه الى علم العلماء (بالمفهوم الغربى الذى فصل بين المعرفة والوجود وترك

الانسان منسقا على نفسه) والحكمة المتكاملة مع العلم فى مقدورها ان تجمع بين أمور الدنيا وأمور الآخرة وبين الواقع والامل ، وبين المبادىء العامه وتفاصيل الحياة اليومية .. تلك الحكمة المتكاملة مع العلم هى التى كانت تميز بعض الفلاسفة خاصة المتصوفين منهم ، فهذا افلاطون يدعو الى ان يكون الملوك فلاسفة أو يكون الفلاسفة ملوكا ، وهذا ابن سينا ينشغل بأمور الدنيا قدر انشغاله بأمور الآخرة ، والامثلة عديدة فى التاريخ ، ولم يحدث الا حديثا وفى اطار الحضارة الغربية ان تم هذا الفصل الواضح بين العلم والحكمة ، وبين المعرفة والوجود ، ولذا ظهرت تيارات الفكر الحديثة متمثلة فى الوجودية كما ظهرت فى هذا القرن كمحاولة لاعادة الاتزان ، كما نجد آثارها فى المحاولات العديدة للجمع بين التفكير العلمى والتفكير الدينى لعل آخرها هو الجمع بين الاشتراكية العلمية (بل والماركسية احيانا) اشبه بما حدث للعميان فى القصة المعروفة عندما حاولوا وصف الفيل من خلال ملامسة اجزاء منه فخلط كل منهم بين الجزء والكل . فالحقيقة واحدة وما يتغير فقط هو رؤيتنا لها .

وهكذا فان المعرفة التى تنبع من منظار ضيق لابد ان تكون ناقصة ولا مفر من ان تتناقض بالتالى مع النظريات المحدودة الاخرى فالذى يرى ان الفيل كالحبل يختلف مع الذى يراه كالعامود بينما المعرفة المتكاملة التى تجمع بين وجهات النظر المختلفة وتعتمد على جميع قدرات الانسان المعرفية ـ العلم والحكمه والعقل والوجدان ـ هى الأقرب للمعرفة الحقيقية فتتجاوز المتناقضات .

فها نحن فى هذا الكتاب ندعو القارىء للمشاركة فى رحلة بين تضاريس الطبيعة ، فيها الوديان والجبال والسهول والانهار والغابات ، وربما نكتشف معا فى الطريق ما لم نكن نبحث عنه أصلا ، وهى رحلة فى قطار أو طائرة طريقها مرسوم وهدفها معروف خالية من المفاجآت حتى ولو كانت المفاجأة هى الكارثة التى تؤدى الى الفناء والعدم ، بل هى اقرب الى رحلة طائر ينطلق ويسعى نحو آفاق شاسعة وفى اتجاهات متعددة .

الفصـــل الأول

نحـــو مفهـــوم الصـــحة النفسية

لايستطيع كاتب ما فى أى موضوع ان يكتب الا وكانت له فلســـفة أساسية · وقد يتجنب تعريف هذه الفلسفة أو تحديدها ولكنه لايستطيع أن يتجنب وجودها · فالاختيار اذن ليس أن يكون للمرء فلسفة أو لايكون ولكن أن يعى هذه الفلسفة بوضوح وتحديد أو لا يعيها · وفى هذه المقدمة سوف نبذل محاولة لمثل هذا التعريف ملتزمين بموضوع الكتاب وهو الطب النفسى للاطفال كنقطة ارتكاز ·

الشىء وضده :

سوف نتعرض باستمرار الى تعريفات لمفاهيم مختلفة ولذا كان لابد لنا من منهج للتعريف · أن تعريف الشىء بالموجب لاينفصل ضـــمنيا عن نفى نقيضه فالتعريف المطلق المجرد من المقارنة، عملية لايستطيعها العقل البشرى· فاذا تحدثنا عن الأبيض فالذى يتبادر الى ذهننا هو المقارنة مع ما هو ليس ابيض وليكن الاسود مثلا أو أى لون آخر · اذا تحدثنا عما هو كبير فالذى يتبادر الى الذهن هو ماليس كبير أى ما هو صغير · وتزداد الصعوبة حينمـــا يكون للمفهوم قيمة ما بالنسبة للمعرف ، فهنا تدخل رغبة المعـــرف فى أن يجعل الشىء أفضل من ضده فهو يفضل هذا الشىء على ضده ، وهو لهـــذا يرغب فى تغليب الشىء على ضده · فيطلق مثلا على الشىء الذى يفضله قيمه الخير فى مقابل الشر أو قيمة الحق فى مقابل الباطل ويسعى باستمرار الى ان يغلب الافضل · الا انه يجد نفسه قد وقع فى معضله لاحل لها الا وهى انه لكى يستمر فى نعت الشىء بانه خير فلابد أن يكون فى ذهنه فى ذات اللحظة القيمـــة المضادة وهى الشر ، فيجد نفسه لايستطيع ان يقضى تماما على فكرة الشر بالتفكير فى الخير اذ انه لا وجود للخير الا فى مقابل الشر أى أن وجوده ليس وجودا مطلقا واذا كان هذا السعى وراء المطلق موجودا فى تفكيرنا الا أنه فى الواقع لا يتحقق الا بانتهاء السعى اليه أى بأن يقبل المرء الشىء وضده معا ·

ولعلنا نجـد انعكاس النظرة فى تعبير رابعة العـــدوية فى قولهـــا مامعناه أنها لاتسعى لله رغبة فى جنته أو خوفا من ناره وانما تســـعى اليه

لذاته • فبانتهاء السعي وراء الجنة والخوف من النار اى بانتهاء تفضيلهـــا للشيء على ضده فانها تجد السكينة فى قبول الحقيقة • ونستطيع ان نجدهذا المعنى فى خبرات مشابهة يمر بها منيعرفون بالمتصوفين علاوة على غيرهم ممن قد لاينعتون بهذه الصفة ولكنهم يمرون بخبرة مشابهه • فقد نجدها عند فنان أو عالم أثناء لحظة خلق او عند الانسان العادى فى مواقف مختلفة لعل أكثرها وضوحا هى لحظات خلق المواجهة مع الفناء أو الموت أو الخطر الداهم ، قد ينكشف أن لكل شيء مكانة وليس هناك شيء أفضـــل من شيء أو على تعبير القول الشائع « ليس فى الامكان ابدع مما كان » فالمرء فى هذه اللحظة يكون متعاليا على الرغبة متقبلا للواقع كما هو لايسعى الى تغيير شيء وهـــو يشعر أنه جزء من هذا الواقع مكمل له ، وليس فى تناقض معه فيتواجد فى انسجام تام بلاصراع بينه وبين واقعه ولاصراع بالتالى بين جوانب من هـــذا الواقع وجوانب أخرى فالذى يفطن اليه ان تفضيل شيء على ضـــده ليس الا اسقاطا لاحساسه بتناقض ذاته مع واقعه واذا انتهى هذا التناقض بين الذات والواقع فان الصراعات الخارجية تبدو وهمية بالتالى • الا ان هذا الانعدام التام للصراع والتوقف يساوى حالة من السكينه التامة التى لايتولد عنهـا صراع ولاحركة وهى تتنافى مع وجود الانسان على قيد الحياه يسعى دائمـــا الى التفاعل والتعبير والحركة • وقد يبدو لاول وهله ان متل هـــذه الخبرة تساوى حالة السكون التام التى تصل ذروتها فى الموت • ولهذا فان هنـاك جانبا آخر لهذه الخبرة وهو القدرة على الاحساس بالانسجام مع الواقع ، فى نفس الوقت الذى يشعر فيه ـ بحكم وجوده ، وكذات منفصله عنهذاالواقع ـ بهذا الانفصال عن الواقع وبالتالى بالتصارع معه • أى أن الخبرة الصوفية الحقة هى تلك التى لا تعطل الفعل لانها تحتوى ايضا على الرغبة فى التغييـر (فى عالمنا الارضى وحيث الواقع ملىء بالمتناقضات) مع قبول الشيء المراد تغييره ونرى هذا فى قول أبى الحسن الشاذلى :

« نحن فى خلوة فى جلوة » أى أنه فى حدوث السكينةوالاشراقة يستمر التعامل مع الواقع اليومى ، او فى قول محيى الدين بن عربى فى وصـــف حالة الاشراقه بأنها « لم تأخذنى منى •• بل أبقتنى معى » أى مع حـــدوث الذوبان تنتهى الذاتية او الوعى بانفصال الذات عن الموضوع ووعى الذات بالذات كمجرد كيان منفصل فهى فى الحقيقة حالة تقبل الشيء ونقيضه على أكمل صورة •

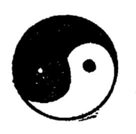
ولعلنا نجد الترجمة الواقعية لهذا الأمر فى خبرة كثير من الانبيـــاء والمتصوفين الذين رأوا الجنة بصورة أو أخرى ولكنهم عادوا منها مختارين لكى يعيدوا ممارسة الحياة على الأرض بكل ما فيها من صراع • ويفسر ذلك كيف ان الدعوة الى الحب التى نجدها فى كل الاديان لاتتناقض مع وجـــود مظاهر الكره فى القتال والعقاب •

واذا حاولنا ترجمة هذه الخبرة الى مفهوم فلسفى فاننا نجد أنها مقاربة الى فكرة الديالكتيك (الجدل) اذ توجد الاطروحة Thesis فى مقابل الاطروحة المضادة Antithesis ومن خلال التصارع بينهما يظهر الحل

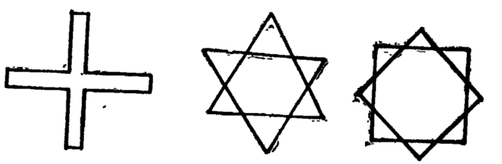
فى صورة جماع الاطروحة Synthesis وظهور الحل لايجعله مطلقا اذ ان هذه المحاولة لتحويل الجماع الى مطلق تنتهى بأن يصبح هذا الجماع هو ذاته أطروحة جديدة تقابلها أطروحة مضادة ويبدو الحل مرة اخرى فى المتناول فى صورة جماع جديد للاطروحة . وهكذا بلا نهاية .

فالجماع اذن هو بحكم التعريف ما يوجد فى وجود الاطروحة والاطروحة المضادة أى الشىء وضده ، أى أن الحل لا يتأتى بتغليب شىء ضده ولكن بالقدرة على تقبل (يونج) وضده .

وقد اشار يونج Jung فى كثير من كتاباته عن الرموز الى كيفية ان هذه الحالة من السكينة أو التكامل النفسى التى يصفها بالتفرد Individuation يشار اليها بجمع الشىء وضده فنجد صورا للانسان تجمع بين الذكورة والأنوثة وبين الخير والشر والنور والظلام . كما اننا نجد رموزا متكررة جامعة للشىء وضده فمثلا فى الصين نجد علامة الين يانج Yin—Yang هكذا .



وهى توضح كيف ان الشىء وضده يجتمعان فى اطار واحد . وكذلك نجد هذه الرموز فى الاديان المختلفة فى صورة تقابل بين اشكال مضادة منها المربع كما فى اشكال الفن الاسلامى والمثلث فى اليهودية والصليب فى المسيحية .



فان كانت الأضداد فى تلك الرموز تبدو متشابهه بل لاتبدو أن تكون صورة معكوسة للشكل الا اننا نجد رموزا اخرى يكون الاختلاف فيها مكملا وابرز التكامل هو مانجده بين الموجب والسالب وبين الفاعل والمفعول وبين الذكر والانثى . ومن الامثلة لتلك الرموز شعار مهنة الصيدلة حيث نجد الثعبان (ويمكن ان يقابل ما هو موجب ومستطيل ومذكر وفاعل) ينفثسمه (الذى هو فى الوقت ذاته شفاء) فى الكأس (وهو أن يقابل ما هو سلبى ودائرى ومؤنث ومفعول به) .



والسم القاتل هو نفسه الدواء الشافى كقول ابى نواس « وداونى بالتى كانت هى الداء » أو حافظ ابراهيم فى حديثة عن كليوباتره « وقد يشـــفى العضال من العضال »

مفهوم للصحة النفسية :

لعل هذه المقدمة كانت بداية الطريق نحو محاولة لتوضيح مفهوم للصحة النفسية · فقد رأينا أن وجود الشىء هو بحكم التعريف وجود الصراع بين الشىء وضده · كما رأينا ان حل هذا الصراع بتغليب جانب على اخر مستحيل منطقيا وأنه لاعلاقة له بالواقع الموضوعي ولكنه اسقاط لما بداخل العقـــل الانسانى حينما ينحاز الى جانب من جوانب الصراع وينكر وجود الجـــانب الآخر فى نفسه مما يضطره الى اسقاطه على الخارج · ثم رأينا كيف انرؤية الواقع كما هو بدون اسقاطات تتولد حينما يفطن العقل الانســـانى الى ان الشىء فى مواجهة ضده انما هى خدعة من خلق هذا العقل وأن الشىء لا يوجد الا مع ضده ، ومن ثم يمكن قبول الانسان لحقيقة أن الشىء وضده موجودان بداخله وان الصراع وهم وان فى هذه الرؤية ، وفى هذا التقبل توجد نهاية الصراع ولعلنا نلخص ذلك لو قلنا ان الصراع لاينتهى الا بقبول وجوده ·

فاذا قارنا هذا بما نحاول ان نسعى اليه من انهاء للصراع خلال النمـط الطبى فنحن نترجم الصراع الى الم · والالم تعبير عن مرض ، والطب يبذل محاولة للتغلب على الالم والمرض ، وسنجد ان العلاج الحقيقى يتمثل فى القدرة على تقبل الالم كوسيلة لانهائه · وهو مفهوم طبى ينافى المفهوم التقليـــدى الذى عرف بانه محاولة القضاء على الالم أى نفيه ، ولعل النتائج العلميـــة الشائعة لهذا الموقف التقليدى هى الافراط فى استخدام العقاقير المسكنه أو المضادة للالتهابات والمضادة للحساسية والضررمن سوء اســـتخدام تلك العقاقير من هذا المنطلق أى منطلق نفى الالم واضح فى حالة كثرة استخدام المسكنات على الاخص ، الا أن هناك تطبيقات أقل وضوحا ولكنها ضارة معذلك مثل حالة المضادات الحيوية حينما ننظر اليها على انها العلاج الحقيقى الذى يكتفى بمجرد محاولة نفى الالم فالتسرع فى استخدام تلك العقاقير قد تبين أن له نتائج ضارة منها حرمان الجسم من تجنيد طاقاته الطبيعية المضـــادة للجراثيم متمثلة فى ارتفاع الحرارة ونشاط الكرات البيضاء وتكوين الاجسام المضادة للجراثيم التى تكسب الجسم مناعة فى الامد الطويل· وبالتالى بمكننا

ان نتصور كيف ان التسرع فى استخدام العلاج قد يؤدى على الامد الطويل الى ضمور فى قدرات الجسم الطبيعية على مقاومه المرض ٠

ويمكن ايجاد امثلة اخرى فى مجالات مختلفه منها مفهوم الراحه فى المرض او بعد العمليات الجراحية الذى تغير حديثا فى اتجاه عدم الافراط فى الراحة ولعل هذه النظرة قد ساهمت فى تغيير المفهوم التقليدى للعلاج الطبى ، ولاشك ان الطب النفسى قد ساهم بدوره فى تغيير هذه النظرة بادئا باول تحول نتج عن اكتشافات التحليل النفسى بأن اظهر المرض كاضطراب فى علاقة الفرد ببيئته بدلا من النظرة اليه على انه خلل داخل هذا الفرد ٠ وتطور هذا المفهوم من خلال وجهة النظر الوجودية فى الطب النفسى التى طبقت هذا بوضوح وجذرية فى اطار علاقة الطبيب بالمرض حيث اشارت الى الطابع الانسانى الذى يفرض نفسه على دور الطبيب والمريض ٠

فالجديد اذن فى مفهوم الطب النفسى فى العلاج لم يعد مجرد السعى وراء التغلب على الالم والحصول على اللذة ، اذ انه كما رأينا توجد استحالة فى تحقيق هذا الهدف من حيث المبدأ ،اذ لاتوجد لذه الا فى مقابل الالم ولكن الجديد هو القدرة على التغلب على الألم بقبول الألم ذاته اسوة بقبول السعى وراء اللذة والتغلب على الالم ٠ فالمريض الذى يبدأ بالالم ويحضر للطبيب آملا فى ان يساعده هذا على التغلب على الألم يجد علاجه فى تقبله للالم وبالتالى يكون أقدر على الاحساس باللذة ٠

ونشاهد تطبيق هذا فى التحول الذى يحدث للمريض المتبلد الحس الذى فقد قدرته على الاحساس بالالم واللذة ، مع ملاحظة ان هذه الحالة من التبلد قد تكون هى فى حد ذاتها الحالة المؤلمة التى دفعته الى العلاج ، هذا المريض يجد نفسه قادرا على استعادة شعوره باللذة حينما يستعيد قدرته على الاحساس بالألم ٠ والمعالج يساعده على مواجهة المه بدون خوف رهيب او هرب كما يساعده على تقبل لذته دون ان يغرق فيها او يندم عليها ٠

وهنا يأتى التحول الاخر فى مفهوم الصحة النفسية ، اذ أنه حسب النمط الطبى نجد ان مفهوم الصحة يعنى غياب الالم الا أننا كثيرا ما نجد أن غياب الالم ليس دليل الصحة بل على العكس قد يكون دليل المرض فمرض السرطان بقدر خطورته كثيرا ما يبدأ بتورم غير مؤلم ٠ كما ان فقدان الاحساس الذى يحدث فى بعض الأمراض العصبية مثل مرض السيرنجوماييليا Syringomyelia يضيع الاحساس بالالم ويبقى الاحساس باللمس فى مواضع ما ، فيؤدى الى تقرحات ومضاعفات اخرى ٠ وكذلك فى حالة انعدام الاحساس بالالم أحيانا فى العضو المريض مما يؤدى الى استمرار استخدام هذا العضو كما لو لم يكن به مرض فينتج عنه أن يحرم هذا العضو من الراحة فيزداد مرضا ٠

ان المقابل النفسى لذلك هو أن المرء لا يشعر بالالم لا يشعر باللذة وأن الصحة النفسية ليست انعدام الألم فى حد ذاته ولكنها تشمل ايضا القدرة على تقبله وأن الرغبة فى احلال اللذة محل الألم ليست الا وهما ناتجا عن الانحياز تجاه جانب فى صراع الأضداد ـ الألم واللذة ـ وبالتالى فهو

مستحيل بحكم التعريف وانما على الالم يأتى بالقدرة على تقبله ·

اذا ما طبقنا ذلك على واقعنا سوف نتساءل كثيرا عن من هو الاصح نفسيا :هل هو المريض الذى يذهب الى الطبيب النفسى أو الانسان «العادى» الذى ينكر آلمه ويتجنبه ؟ ولعلنا نجد فرصة افضل للاجابة على هذا التساؤل بوضوح فى مجال الطب النفسى للاطفال ، فكثيرا ما نرى ان الطفل المريض ما هو الا المعبر الظاهرى عن مرض أسرته وكثيرا ما يكون هو اكثر ابناء الاسرة ذكاء وحساسيه ورغبة فى التطور والنمو ، ومعاناته ليست الا دليلا على صدق رغبته هذه واحباطها ازاء تحجر أسرته أو مقاومتها ·

وهنا يولد فهم جديد لنمط المرض النفسى فبدلا من النظر من خلال النمط الطبى التقليدى على أنه اختلال فى داخل الفرد تراه مظهرا من مظاهر اضطراب العلاقة بين هذا الفرد وبيئته · وهو اضطراب لا يعبر عن نقص فى هذا الفرد او عيب فيه بل ان العكس قد يكون صحيحا أحيانا ، وذلك حين يكون الفرد بحكم تفوقه على بيئته هو الذى يعانى من مقاومة بيئته لنموه ·

فالمرض النفسى هنا هو عملة ذات وجهين وليست خللا فى وجة دون الآخر · وهنا يمكن النظر الى معاناة الانسان فى صورة الالم والمرض النفسى كمحاولة من جانب الفرد للتطور والنمو بدلا من التوقف عند التكيف الاعمى لبيئة تشده للجمود · وهذا يؤدى بنا الى فهم المرض النفسى من خلال نمط النمو Growth model أو التطور ، بدلا من النمط التقليدى Medical model ولكن لابد لنا من التنبيه هنا دفاعا عن النمط الطبى التقليدى وتحاشيا للانزلاق فى الدفاع الرومانسى عن المرض الا انه لا يوجد مبرر حقيقى للهزيمة والاستسلام فى صورة المرض · فالانسان المتطور مهما عانى وتألم فهو يستطيع دائما ان يجمع بين التطور والتكيف فى آن واحد ــ وذلك استمرارا لتطبيق مبدأ الجماع للاطروحة ــ فاذا كان التطور يتناقض مع التكيف فان حل هذا التناقض لا يأتى بتغليب التطور على التكيف وذلك لان التطور كمطلق لاوجود له فى مقابل التكيف ·

هنا يتضح الفخ الذى يقع فيه الطب النفسى التقليدى وذلك أنه غالبا ما يكون الطبيب النفسى مجرد أداة لطرف من الأطراف وهو عادة طرف التكيف فى مقابل التطور · فيجد نفسه فى مواجهة المريض الذى جاء مرضه نتيجة لرغبته فى التطور بان شذ واختلف عن مجموعته · فالطبيب الذى يأخذ هذا الدور يكون محكوما عليه بالفشل ــ وذلك لرغبته فى تغليب كفة من كفتى الصراع على الأخرى ويجد نفسه فى تناطح مع المرض والمريض على السواء وكلما زادت مقاومته زادت مقاومة الطرف الآخر كمثل الجسم الزلق فى القبضة القوية كلما زادت قوة القبضة زاد انزلاق الجسم ·

والنتيجة العملية لذلك أن يستمر المرض النفسى طالما هناك طب نفسى . فى علاقة أقرب ما تكون الى التكافل بين الظاهرة والمهنة ، ولم لا ؟ فالطبيب النفسى يبرر وجوده من خلال وجود المرض النفسى وانتشاره ، وتزداد أهميته كلما ازداد الاحتياج اليه وينتج عن ذلك ان الطب النفسى قد يجد نفسه فى

تناقض مع الصحة النفسية ويجد مصلحته فى ابقاء ظاهرة المرض موجودهفى حدود معينة كما فى حالة سمك « الباراكودا » الذى يحرص على حياة فريسته ابقاء عليها لكى يأكلها حينما يجوع وأسـوة براعى الاغنام الذى يرعاها ويسمنا لكى يأكلها وقتما يريد .

والعلاج الحقيقى والجذرى للمرض لايتأتى الا من خلال جماع الاطروحة أى بالقدرة على تقبل المرض علاوة على رفض المرض ، فالمريض يرفض أعراضـه ويشكو منها وكلما زاد رفضه زادت الاعراض . والطبيب ازاء ذلك يجب ان يقبل المريض ويقبل رفض المريض لتلك الاعراض وازاء هذا القبول (١) فان الاعراض ـ فى غياب الاطروحة المضادة وهى رفض الطبيب تعود الى مكانتهـا كجماع للاطروطة السابقة وهى الصراع لدى المريض بين الرغبة والرغبة المضادة ـ ومع ظهور هذا الصراع الى السطح وتقبل جانبى الصراع فان المرض يختفى . وقد تتكرر هذه العملية على عدة مستويات فالرغبة قد تكون فى حد ذاتهـا جماعا لاطروحة أخرى تظهر مع القدرة على تقبل تلك الرغبة وهكذا، مما يجعـل العلاج يؤدى الى تصفية الصراعات الظاهرية الى صراعات اساسية ثم تقبـل الجانبين . ونهاية العلاج هنا ليست نهاية الصراع وانعدامه ولكن بتقبـول وجود الصراع ، واستمرار العلاج أو التطور يتوقف على مدى الألم وعمـق الصراع الذى يختفى وراء الصراع الظاهرى .

ولكى نعيد صياغة ماسبق ذكره نستطيع ان نقول ان الصحة النفسية هى جماع بين التكيف والتطور وبين التقبل والرفض ، وبعبارة اخرى الجمع بين الأضداد فى اطار واحد .

التطور والتكيف فى الصحة النفسية :

أشرنا الى أن التكيف التام يتناقض مع التطور كما اشرنا الى أن التطور المستمر قد يعوق التكيف وكيف أن الصحة النفسية بمفهـوم الجمع بين الأضداد تقتضى القدرة على التكيف والتطور معا . ولابد ان نفرق هنا بين قيمة قد تكون من اسقاط الكاتب بمعنى تفضيله لمفهوم معين للصحة النفسية وبين المحاولة الصادقة للنظر بموضوعية دون تشويه الاحتياجات الشخصية للكاتب أو القارىء .

فواقع الامر يظهر لنا كيف أن الفرد أو المجتمع أو الكائنات الحية بصفة عامة كانت تحتاج على مر الزمان الى قدر من التكيف مع قدر من التطـور . فالتكيف التام يؤدى الى درجـة من الجمود والملل ، قد تنتهى بالموت أو على الاقل تتساوى معه . ففى عالم الحيوان نستطيع أن نرى كيف ان كل نوع قد وصل

(١) ابتدع فكتور فرانكل Frankl طريقة الـ Logotherapy حيث يستخدم وسيلة القصد المفارق Paradoxical intention وتعتمد على تطبيق لهذه الفلسفة فهـو يطلب من المريض أن يفعل الشىء الذى يشكو من أنه يقاوم فعله كما يحدث فى الوسـواس القهرى أو الشىء الذى تخاف من فعله كما فى حـالة الرهاب .

الى قمة درجة تكيفه فتوقف عن التطور ، ولكنه نتيجة لهذا التوقف قد اصبح فى حالة من الجمود تجعله لايستطيع أن يجابه ظروفا جديدة فى حالة حدوثها فيؤدى هذا بالتالى الى انقراض النوع ٠ فالديناصور مثلا قد وصل الى قمة التكيف من حيث الحجم والقوة الا انه فى مجابهه تغير الظروف من نقصان فى الطعام أو الحاجة الى الانتقال السريع لم يستطع ان يجابه الواقع الجديد فانقرض ، وهنا نرى ان التكيف عندما يزيد عن حده فانه ينقلب الى ضده فيصبح انعداما للتكيف ٠ ولعل الانسان فى عالم الأحياء هو القادر على المرونة التى تجعله يحمل شعلة التطور مع احتفاظه بقدرته على التكيف ٠

واذا أخذنا مثالا من المجتمع الانسانى لوجدنا أن بعض الحضارات مثل الحضارة المصرية القديمة وصلت الى درجة من التكيف انتهت بها الى الجمود والثبات الذى أدى بدوره الى انتهاء تلك الحضارة ٠

وعلى مستوى الفرد نرى كيف ان الفرد المتكيف تماما مع مجتمعه فى الحياة اليومية قد يصل الى درجة من الآلية وعدم القدرة على التحديد تجعله انسانا معدوم الشكل والتلقائية والحرية كالدمية ينقصه النبض الداخلى والاحساس ، حتى انه يصبح فى النهاية مجرد ترس فى آلة وضحية لقوى خارجية وكائنا مسلوب الارادة ٠

وعلى الجانب الآخر لو نظرنا الى التطور على آنه يشمل القدرة على التغيير والتجديد ودرجة من الرفض للواقع التى قد تتحول الى درجه من عدم التكيف فاننا نرى كيف أن الانسان دونا عن الحيوانات الاخرى المتكيفة قد استطاع ان يحتفظ بهذه القدرة على التغيير والتجديد مما جعله اقدر على مجابهة الظروف الجديدة وبالتالى على الامد الطويل أكثر قدرة على التكيف ٠ ولكنه لنفس السبب ــ أى لقدرته على التطور ــ يتنازل عن الكثير من أدوات التكيف التقليدية مثل الأظافر والأنياب والدروع فاصبح بالتالى اكثر عرضة للموت فى الامد القصير ٠ اذ كلما قلت هذه القدرة على التكيف لحساب التطور كلما اصبح اكثر عرضه للهزيمة السريعة الا أن القوة والبقاء لاتقاس بالضرورة بالاثار المباشرة ولابد من أخذ عنصر الزمان فى الاعتبار ، فان التنازل عن الاسلحة التكيفية القصيرة الأمد فى سبيل التطور أعطى فرصة للانسان لايجاد أسلحة تكيفية جديدة أكثر فاعلية ٠

وعلى مستوى المجتمع نستطيع ان نرى كيف ان المجتمع وهو فى حالة التجديد أو التغيير الداخلى قد يميل الى الانغلاق على ذاته ، وينسحب من تحدى التكيف مع المجتمعات الأخرى ٠ فنشاهد كيف أنه ابان الثورات تغلق الحدود وتتوقف الحروب الخارجية والغزوات الى أن تحدث التغييرات الداخلية المطلوبة فيعود الانفتاح على العالم الخارجى بعد الوصول الى درجة من الاستقرار ٠ فاذا استمرت الثورة الداخلية بدون قدر من الاستقرار يسمح بالانفتاح فيما بعد فان ذلك يؤدى الى استنزاف داخلى لقوى هذا المجتمع مما يعرضه للغزوات من الخارج والهزيمة ٠ ومرة أخرى نرى كيف أن التطور ــ بمعنى الثورة الاجتماعية المستمرة ــ اذا زاد عن حده قد ينقلب الى ضده ويؤدى بالمجتمع الى التدهور والانهيار ٠

أما على مستوى الفرد فاننا نشاهد المثال بوضوح فى حالة الشـــباب وما يصاحبه من ثورة وتغيير داخلى ففى هذا المرحلة يعيد الفرد النظر فى كل شىء ويتساءل ويتشكك ويثور ويسعى الى التغييرات الجذريه • ومن خـلال تلك الثورة يبحث الشاب عن هويته الجديدة ويبلور شخصيته استعدادا لاخذ دوره فى المجتمع ، ولكننا نرى كيف أنه فى بعض الاحيان عندما تزداد الثورة عن حدها فانها تعوق قدرة الشاب على التكيف فلا يستطيع الدراسة اوالعمل او الزواج ، وبدلا من أن يكتشف الجديد فى نفسه يصير مكتفيا برفض القديم فحسب ويفشل بالتالى فى تكوين مفهوم جديد لذاته • فمرة أخرى نرى كيف أن الأطروحة فى التطور أدت الى نتيجة عكسية بأن اكتفى الفرد بعدم التكيف فقط وبالتالى اندثر • وعلى مستوى التاريخ نرى كيف ان ثورات الشباب التى قام بها سقراط والمسيح وغيرهما والتى فاقت قدرة المجتمعات التى ظهرت فيها على تقبلها فأدت الى المقاومة العنيفة من جانب المجتمعات ولما لم تنجـــح المجتمعات فى القضاء على هذه الثورات بقتل مريديها جسمانيا ، قتلتهم بـأن حولت افكارهم الى انظمة جامدة ومتحجرة تقاوم هى ذاتها أية ثورة شـــابة فحولت فلسفة سقراط وتفتح ذهنه وتعاليم المسيح الى مبررات لقتل اى فكر جديد وأية ثورة أو تطـــور •

اذن نستطيع أن نلخص العلاقة بين التطور والتكيف بتشبيه ذلك بالماء المنساب والمجرى فالماء الذى ينساب (وهو يمثل الحركة والتطـــور) بدون مجرى ينتهى به الامر الى التبخر والاختفاء قبل ان يصل الى هـــدف ، وأما اذا كان المجرى متحجرا وغير قابل للاتساع او الانعطاف عند اللزوم فانه يعـوق سير الماء وينتهى به الامر ايضا الى الفيضان والضياع او يتحول هذا الماء الى ماء راكد وعفن •

بين السواء المطلق والسواء النسبى :

يقودنا هذا المفهوم للصحة النفسية بين التطور والتكيف الى مفهومين للسواء يبدوان متناقضين ، الاول : هو مفهوم السواء بالمعنى المطلق حتى ولو كان ذلك على حساب التكيف ، وهنا قد نتصور الفرد (المريض) هو الصحيح بينما البيئة مريضة •

والثانى : مفهوم السواء بالمعنى النسبى أو الاحصائى اى أن يكون الفرد مثل الآخرين أو انسانا « عاديا » حتى ولو كان هؤلاء مرضى بالقياس الى نفس المجتمع فى حقبة أخرى من الزمن أو بالمقارنة مع مجتمع آخر •

ولعل التشبيه فى المجال العضوى هنا قد يوضح الصورة ، فيما أن أغلب الناس يعانون من التسوس فى الاسنان فان التسوس فى الاســـنان يعتبر شيئا « عاديا » أو سويا سواء نسبيا او احصائيا • الا أن هذا لايعنى ان التسوس فى الاسنان ليس مرضا بمقاييس الكمال الصحى المطلقة •

وهناك قصة عن الحاكم الذى أبلغ أن الماء الذى يغذى المدينة ســـوف

يلوث بمادة تسبب الجنون لمن يشربها ، فأمر بحجز كمية الماء النقى غير الملوث لاستخدامه الشخصى لكى لايصاب بالجنون . وبعد ان وصلت المياه الملوثه واصيب قومه بالجنون وجد نفسه غريبا عنهم بل كانوا ينظرون اليه على أنه هو المجنون الوحيد فيهم بينما هم العقلاء ، فتخلى عن مياهه وقرر أن يشرب من النهر ويشاركهم الجنون • ان السواء الذى تمتع به الحاكم قبل أن يشرب من الماء الملوث كان تمنه العزلة والغربة ومن ثم فقد رضى أن يبيع عقله فى مقابل الألفه والتواجد بين الاخرين •

وفى الحياة اليومية نجد أن الفرد يتصارع بين النزعة الى تحقيق ذاته وتاكيد اختلافه عن الآخرين مع دفع ثمن العزلة والوحدة والتصارع مع الأخرين الذى قد ينتهى به فى أسوا الحالات الى الجنون أو الانتحار أو الى المخدرات والعقاقير ، وعلى أحسن الفروض الى الانعزال عن الدنيا فى برج عاجى أو الى الاستشهاد •

وعلى الطرف الآخر نجد النزعة الى محو فرديته وتأكيد تشابهه مع الاخرين حتى يصبح صورة جوفاء وخاليا من الاحساس العميق والقدرة على الخلق والابتكار . وبكلا الطرفين لا يحل الموقف فهناك الم دائم فى كلتا الحالتين • والحل اذن هو فى القدرة على مواجهة حقيقية انه ليس هناك حل فى تغليب جانب على آخر ولكن فى قبول النقيضين فى نفس الوقت ،ويستطيع فى هذه الحالة أن يعيش وحدته واختلافه بالكامل فى نفس اللحظة التى يعيش فيها توحده مع الاخرين – فهو وحده ومع الآخرين •

وفى مجال طب الأطفال النفسى نجد المثال فى الأسرة التى تحيا هذه الحياة المتكيفة مع البيئة فتفرض نفس التكيف على أفرادها فلاتسمح لهم بالاختلاف ، فاذا نشأ طفل يتميز بالاصرار على الاختلاف (أو ربما يكون به عيب خلقى يعيق قدرته على التكيف) فانه يعيش هذا الصراع الذى يأخذ صورة المرض أو الجنون فى حالة عدم تكيفه ازاء السلطة القاهرة للاسرة فلا يستطيع ان يؤكد فرديته الا بالجنون • ولكن اذا كانت الاسرة على درجة من المرونة وسعة الصدر (او اذا اصبحت هكذا بواسطة العلاج) فان الطفل قد يجد فرصة ليؤكد ذاته المختلفة فى اطار من القبول العام من جانب الاسرة •

ونلخص معادلة السواء المطلق والسواء الاحصائى أو النسبى فى أنه لا هذا ولاذاك يعتبر المقياس الحقيقى للصحة النفسية ، ولكن يجب الاخذ فى الاعتبار بنظرة تشمل تناقضيهما فى اطار جماع •

هل هناك اتجاه :

واذا كانت الصحة النفسية تخضع لصراع الأضداد وأصبح وجود الانسان أشبه بالذبذبة بين الاطراف •• فهل كل مايحدث مجرد تكرار بدون هدف أو اتجاه ؟ وهل نحن مجرد أدوات مسلوبة الارادة تدور دون وعى؟ ان وجودنا فى حد ذاته ووعينا بهذا الوجود يحوى رغبة فى الوجود ، اننا نريد ان نحيا وقد سميت هذه الرغبة غريزة الحياة • ولكن الرغبة فى الحياة تعنى اننا نعى فى مقابل هذه الرغبة وجود رغبة مضادة الا وهى رغبة الموت فاننا حينما

نقول نريد ان نعيش فاننا نعي أن هناك حالة موت نريد أن نتجنبها • وقد نعي هذه الحالة المضادة أي الموت أو لانعيها الا اننا طالما نحن منحازون الى الرغبة في الحياة فنحن ننكر الموت ونتجنبه الا ان هذا بطبيعة الحال لايلغي وجوده • اننا بعبارة أخرى نسعى الى حل التناقض بين الحياة والموت بتغليب جانب على آخر ، وكل ما يحدث هو أن رغبة الموت تبقى خارج دائرة الوعي ولكنها تفرض وجودها علينا بشكل أو آخر . فيستمر الصراع ونستمر طرفا فيه نحن نعى جانبا وننكر آخر وبالتالي يستمر الالم •

ونجد ذلك في مجالات الطبيعة المختلفة ففي عالم الاحياء قد يصر كائن على أنه يمثل القوة أو الحياة أو الحق او الفضيلة بينما الطرف الآخر يمثل الضعف أو الموت أو الباطل أو الرذيلة فيستمر في تعارضه مع هذا الطرف الاخر بعنف حتى يقضى عليه الا انه اذا نجح في القضاء عليه نجده بالتالي يقضى على نفسه اذ أن وجوده كان في الاصل يعتمد على تناقضه مع ضده فاذا أخذنا كمثل الكائنات الطفيلية التي تعيش في جسم مضيفها « العائل » فهي تصارعه وتأكله واذا نجحت في القضاء عليه اتمت بذلك القضاء على مصدر بقائها وماتت هي الاخرى •

واذا أخذنا مثالا من تاريخ المجتمع الانساني نجد أن دولة ماتستعمر دولة أخرى وتسعى بكل طاقتها الى استغلالها لأقصى درجة ولكنها بعد نقطة معينة قد تجد نفسها قداستنزفت ضحيتها لدرجة أن أصبحت الضحية عديمة القيمة ولا تصلح للمزيد من الاستنزاف فاذا استمرت في استنزافها غريمه لكي يسمح له بدرجة من النمو تجعله أكثر فائدة واصلح للاستغلال الاستيطاني في جنوب افريقيا •

وهنا تظهر ضرورة اخرى وهي انه لابد للمستغل أن يخفف قبضته على غريمه لكي يسمح له بدرجته من النمو تجعله اكثر فائدة واصلح للاستغلال وهذا ما يحدث في الاستعمار الحديث • ونستطيع أن نرى التدرج في نوعية الاستغلال في أمثلة من العالم الحاضر فالعلاقة الاستعمارية بين البرتغال ومستعمراتها بها درجة من الاستنزاف اكثر من تلك الموجوده في علاقة المستعمر الامريكي بمستعمراته . فالاول لم يستطع الدوام طويلا بينما الثاني أكثر قدرة على الاستمرار •

واذا انتقلنا داخل الدولة لوجدنا نفس نوعية العلاقات بين الحاكم والمحكوم فالحاكم في النظم البدائية الذى يميل الى فرض سلطانه بدرجة كبيرة من الجبروت يستنزف طاقة محكوميه لتحمل تسلطه بسرعة فلا يدوم• ومثال ذلك الدكتاتوريات العسكرية التي لاتعمر طويلافي اغلب الاحيان وهي في أفضل الاحوال قلما تتعدى حياة صاحبها بينما الدكتاتوريات المقنعة والتي تتستر وراء اسماء براقه مثل « الديموقراطية » أو « الاشتراكية » وتمارس خدعة تغيير الوجود مع الاحتفاظ بالشكل تعيش مدى أطول اذتستطيع أن

تستغل محكوميها بطريقة أفضل بأن تقدم لهم قدرا من التنازلات . ولعل المقارنة هنا توضح الامر وذلك اذا اخذنا مثال الذئب وفريسته بالمقارنة مع راعى الاغنام ونفس الفريسة .

وإذا انتقلنا الى مستوى الأسرة والطفل نجد أن الاسرة المتسلطة والصارمة فى نظامها قد تنجح فى الأمد القصير فى السيطرة على ارادة الطفل بدرجة كبيرة من التحكم الا ان هذا لايستمر كثيرا ويأتى الوقت الذى يثور فيه الطفل سواء كان ذلك فى حينه او بعد فترة فى شبابه فينقلب نهائياعلى هذه السيطرة بالثورة العارمة عليها حتى يصبح هو بصورة ما مسيطرا جديدا ينقلب على من كان يسيطر عليه فى الماضى اسوة بالمستعمر القديم والثورةالتى تصل الى قلب الاوضاع ضده .

فالطفل الذى ينحرف او يمرض عقليا ينجح بطريقته الخاصة فى الانتقام من سيطرة أسرته عليه بل أنه بهذه الطريقة قد يفرض على أسرته نوعا من السيطرة . فبحكم مرضه قد يلزم أمه بالبقاء معه ورعايته أو العمل ساعات للانفاق على علاجه . بينما الأسرة التى لاتفرض سيطرتها بهذه الصورة المتطرفة قد تنجح فى التحكم فى طفلها على الأمد الطويل مقابل تنازلات تقدمها له فى الامد القصير .

ونستطيع أن ننتقل بالمثال الى حياة الفرد النفسية فالفرد الذى يصر على التمسك بالحياة فى صورة الانهماك المستمر فى العالم الخارجي وينكر الرغبة فى الموت فيأخذ صورة الحاجة الى الانطواء والانعزال والراحة ، هذا الفرد يمارس سلطة ديكتاتورية من جانب فى نفسه على جانب آخر وينجح بهذه الطريقة فى فرض سيطرة محكمة على هذا الجانب ولكنها سيطرة متطرفة وقصيرةالأمد تنتهى بأن يحدث الانقلاب المضاد آجلا ، ويفرض الجانب المقهور وجوده فى صورة الجنون أو غير ذلك . ويصور لنا Goethe هذه المأساه فى مسرحية « فاوست » حين يتعاقد فاوست مع الشيطان ويعطى الفرصة لهذا الجانب من نفسه أن يظهر بصورة عارمة بعد هذه السنوات التى فاتته من الهوان والكبت . ويختلف الأمر حينما يستطيع الفرد أن يحصل على درجة من التعادل بين جوانب نفسه المختلفة فالجانب المسيطر كلما قلت حدة سيطرته كلما طالت مدة استفادته من الجانب المسيطر عليه وكذلك نوعية هذه الاستفادة ، كما ان الانقلاب اذا حدث سوف يكون أقل حدة ولن ينتهى الى دمار الاثنين معا .

ان الذى نتبينه هنا هو أن الصراع بين الأضداد لاينتهى الا بقبول وجوده، وقبول وجوده يعنى قبول كل من الطرفين أى الجانب المسيطر والجانب المسيطر عليه فكل طرف يريد أن يلغى الاخر ولكن كلما زادت حدة الرغبة فى القضاء على الآخر كلما زاد احتمال أن يصبح الطرف المسيطر مسيطرا عليه وكلما قلت حدة الرغبة كلما قلت فرص الانقلاب وتحولت الى مجرد تبادل للادوار ذى تأثير متبادل وربما بناء بين الطرفين .

أى أن الاتجاه الذى نشهده هنا هو اتجاه نحو الاعتراف المتبـــادل الكمى تغييرا نوعيا ، ولعل الصفة الغالبة لمثل هذا التغيا يمكن التعبير عنها الكمي تغييرا نوعية ، ولعل الصفة الغالبه لمثل هذا التغيير يمكن التعبير عنها بكلمة « التحرر » Liberation وهى مساوية لتعبيـرات أخرى مثـل اللاتعلق non-attachment ويجب الانخلط هنا بين مفهوم كثيرا ما يختلط بهذا المفهوم ويوصف بكلمات مشابهة مثل الحرية والفوضى والانحلال والحياد والوسط ورغم ان التشابه ظاهرى الا أن الفرق جوهرى ٠ ولعل سر اللبس فى المعانى يأتى من اننا مازلنا نرتبط بجانب من الصراع ونتوهم أن التحرر هو تحرر لهذا الجانب على حساب الجانب الآخر بينما التحـرر بمعناه الحقيقى يعنى القدرة على فك الارتباط بين كل من الجانبين دون أن تتحيز لطرف أو تتحول الى طرف جديد فى صراع جديد ٠

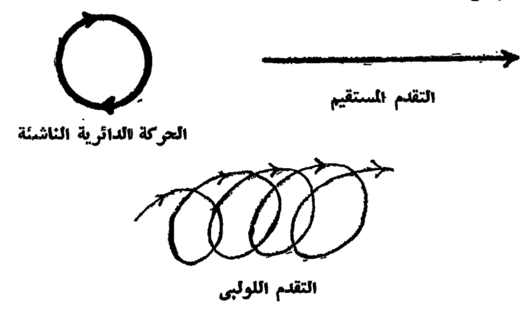
وليس المقصود من محاولة تحديد هذا الاتجاه ان نفتعل هدفا يفرض من الخارج على القارىء بقدر ما هو محاولة لرؤية الواقع كمـــا هو بجميع أطرافه ، أى أن الهدف هنا مجرد مشاهدة لما يحدث واستنتاج أنه بطبيعة الامور هناك صراع والصراع به ألم والألم يدفع صاحبه نحو حـــل الصراع

للتغلب على الألم وحل الصراع لا يأتي طالما صاحب الشأن يأخذ جانبا من جوانب الصراع ويحاول الغاء الجانب الآخر انما يأتى بقبول جانبى الصراع وهـــذا بالتالى يؤدى الى تقريب طرفى الصراع . أى انه اذا قلنا أن الانسان يسعى نحو التحرر فهذا لا يعنى اننا نقول أن التحرر فضيلة يجب السعى نحوها بقدر ما نقول ان هذه الرغبة فى التحرر هى جزء من الواقع الذى نقبله .

بقى السؤال عن امكانية الوصول الى التحرر أو بعبارة أخر هل توجد حالة تحرر بالمعنى المطلق ؟ والرد هنا لاضرورة له فالذى نستطيع أن نؤكده فعلا بدون الحاجة الى الدليل أى يفعل الايمان البحت هو اننا نعى الرغبة فى التحرر (وقد نعبر عنها بصورة وصيغ مختلفة) . وقد نلجأ الى اثبات وجود التحرر كقيمة ممكنة التحقيق باللجوء الى المنطق الذى يقول ان وجود العطش دليل على وجود الماء فنقول ان الرغبة فى التحرر تعنى وجود التحرر كقيمة نطلبها ، ولكن حتى هذا لاضرورة له فالواقع الذى نشير اليه اشبه بالواقع النفسى الذى يؤكد وجود الشىء بغض النظر عن وجوده فى حد ذاته ، فالماء مثلا قد يكون له وجود لذاته الا أن وجوده لذاته لا يعنى شيئا كوجود الا من خلال من يعى هذا الوجود ، وهو وعى ينبع فى حالة الانســـان من دافع الاحســـاس بالعطش والحاجة الى الماء ٠ وهكذا فان التحرر بغض النظر عن طبيعته ومحاولات وصفه فى حد ذاته لايعنى شيئا الا من حيث أننا نسعى اليه ونعى وجوده بشكل أو آخر ٠

اذن نستطيع أن نلخص القول بأن هناك سعيا نحو التحرر وانه رغم الشكل الدائرى الذى تأخذه محاولات التحرر فان هناك تغييرا كميا يتحـــول بعد درجة ما الى تغيير نوعى ٠ ولعل اقرب تشبيه لمثل هذا التقدم الذى لا هو

مفتوح الاتجاه كالخط ولا هو محدود كالدائرة هو الشـــــكل اللولبي او الحلزوني ٠



التقدم اللولبي

ولعل هذا التشبيه يكون مقاربا بشكل ما من بعض نظريات الطبيعة فى نظريات الكمات Quantumm theory حيث أنه فى تفسير طبيعة الضوء بين كــونه موجات متكررة وثابتة (الخط المستقيم) وبين كونه كمات منفصلة (دوائر مستقلة) والتفسير الاحدث هو أنه جماع بين هاتين ، اى عبارة عن كمات من الموجات وهذه النظرية تفسر ظاهرة انحراف اشعاعات الضوء عــن الخط المستقيم الذى كان هو التصور الغالب ٠

وسوف نجد أيضا فى مجالات النفس البشرية ما نستطيع تشبيهه بهذه التطورات فى علوم الطبيعة وسنشير اليها بالمزيد فيما بعد ولكن لو أخذنا النمو النفسى للانسان لوجدنا هذا الحوار بين كون النمو عملية مضـطردة بانتظام استقامى وكونه مراحل منفصلة وسوف نجد نفس الاتجاه الى الجماع فى تفسير النمو النفسى خاصة فى وصف اريكسون لمراحل نمو الانسان٠

التطور والطب النفسى :

اذا كان اتجاه التطور نحو المزيد من التحرر فما هو مكان الطب النفسى ودوره فى ذلك ؟

من حيث الشكل العام نجد أن الانسان فى تقدمه يتغلب على مشــكله اشباع احتياجاته الاساسية وهى فى الدرجة الاولى الاحتياجات البيولوجية التى تشمل الطعام والجنس والمسكن والنوم والهواء ٠ ورغم مايوجد مــن قصور فى اشباع هذه الاحتياجات على مستوى الجنس البشرى فان قــدرة الانسان على مجابهة هذه المشاكل اصبحت فى نطاق الممكن ٠ ويأتى فى الدرجة التى تتلو ذلك الاحتياج الى الأمان والاستقرار وهــذا مانجده فى صــــورة الاشكال التى تأخذها الاسر والمجتمعات من حيث توفيرها لافرادها كالحماية من الألم والأضرار المادية بصفة عامة ٠ ويأتى بعد ذلك الحاجة الى الانتماء بمعنى

الحاجة الى أن يشعر المرء بأنه محبوب ومرغوب فيه . ثم بعد ذلك تأتى حاجة الانسان الى الحب ، فبعد أن يستقر ويأمن فهو فى حاجة الى أن يكون علاقات تتميز بالدفء والتقبل والمشاركة تتلوذلك مرحلة يواجه فيها المرء احتياجاته على مستوى أعلى وهى الحاجة الى التقدير أى أن يشعر أن الآخرين يقدرونه ويعطونه قيمة واهتماما . وفى النهاية وحينما يتحرر الانسان من كل الاحتياجات الاساسية فهو يسعى الى ما يمكن أن نسميه تحقيق الذات Self - actualication

وهى تعتبر بداية أعلى مراحل التطور فى الانسان حيث يسعى الى المعرفة وتذوق الجمال فى نفسه وفى العالم المحيط به ويساهم فى الاضافة الى تلك القيم فيترك عالمة أفضل مما وجده عندما دخله بغض النظر عما اذا كانت أعماله تجلب له الاشباع البيولوجى أو الامان أو الحب أو الانتماء او التقدير (وهى وان كانت تجلب له كل هذا فهى كثيرا ماتتناقض معه كما وجدنا فى حالات سقراط والمسيح وموزار وغيرهم) .

ونحن نستطيع أن نرى كيف يمكن أن ينهمك الانسان فى كل مرحلة من تلك المراحل متجاهلا أية مرحلة لاحقة فالذى يسعى وراء احتياجات الغذاء أو الامن من المخاطر لايعطى أهمية المستميت الذى لايبالى بآلامه أثناء المعركة وهنا فلاحاجة ملحة الى الطبيب النفسى ، وان كان ثمة حاجة اليه او الى الطبيب العضوى على أفضل تقدير ، فانها لاتعدو أن تكون حاجة من يريد التضميد المؤقت حتى يستطيع مواصلة معركته ، فهو لايجد الوقت للتأمل أو التفلسف والحيرة واذا انتابته مثل هذه الحالات فان مطلبه هو كيف يتجنبها أو يخفيها . اننا نرى مثل هذا الوضع على جميع المستويات : فعلى المستوى البيولوجى نجد ان الكائنات الحية طالما هى منهمكة فى معركة البقاء فهى قلما تنمى القيم الجمالية وانما تكون الاسبقية لديها للقيم الوظيفية ذات الامد القصير (باعتبار ان القيمة الجمالية لها وظيفتها فى الامد الطويل) وعلى مستوى المجتمعات نرى كيف تكون القوة بالمعنى العسكرى والاقتصادى هى صاحبة الاسبقية على الفن والثقافة طالما هناك معركة بقاء . وعلى مستوى الفرد فاننا نجد أن الفرد طالما هو مضطر للسعى وراء رزقه اغلب الوقت فهو قلما يتفرغ للتأمل أو الجمال فلا يعقل ان ننتظر من المرء الذى تلح عليه احتياجاته المادية الاساسية ان يتوجه الى ما هو اسمى من ذلك فالله سبحانه وتعالى يتوقع من بنى قريش أن يعبدوه ولكن بعد أن امن لهم تلك الاحتياجات : « فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (١) .

وفى هذه الحالات جميعا فان الطب النفسى يعتبر رفاهية بل انه قد يعتبر أداة للهروب من المعركة (فى البوذية يصفونها بالهروب فى النيرفانا) . وكثيرا ما أتهم الطب النفسى بأنه يخلق المبرر لمن يريدون الهروب من معركة الحياة تحت راية العلاج النفسى .

---

(١) سورة قريش

الا ان المراحل بحكم التعريف تعتبر مراحل ولها نهايتهـــا ولا مناص من أن تنتقل الى التى تتلوها فلا يعقل ان يستمر الفرد مثلا فى معركة من أجل الرزق طيلة عمره وخاصة اذا ما انتفت الدواعى الخارجية التى تحـــتم عليه هذه المعركة فكثيرا ما نجد افرادا يكدسون المال اكواما ويطمعون الى المزيد من السلطة رغم حصولهم على ما يكفى احتياجاتهم ولكنهم يصرون على الاستمرار فى هذا الطريق ٠ وهنا لا مفر من مفترق للطرق فاما ان يستمروا فى التشبث بالمرحلة بعد انتهـــاء وظيفتها ويكبتون نداء المرحلة التالية واما ان يعيدوا النظر فى طريقة تكيفهم فينتقلون الى المرحلة التالية ٠٠ وفى كلتا الحالتين هناك ازمة نستطيع ان نســـميها ازمة تطور وهى ازمة اشـــبه بالنقلة بين الموت والميلاد الجديد اذ ان طريقة التكيف القديمة تموت بكل ما يصاحبها من خواص الشخصية وتولد طريقة جديدة للتكيف وما يصاحبها من خواص جديدة للشخصية ٠ ومع الميلاد الجديد تظهر آلام الولادة وفى أزمة التطور هذه يظهر الطبيب النفسى كمولد ومساعد للطبيعة أكثر منه كمعالج ٠ واذا كان التحول المؤقت لطب النساء والتوليد قد جعـــل من الحمل مرضا ومن الولادة عملية جراحية لعلاجه فان نفس هذا التحول نجده فى الطب النفسى حينما يرى فى التطور مرضا والعلاج الطبى النفسى عملية توليد صناعية أقرب الى الاجهاض (وربما منعا للحمل من أصله) منها الى التوليد ٠

الا أن آلام الولادة كثيرا ماتشـــبه آلام الاجهـــاض أو ربمـــا آلام أية مرحلة مرضـــية اخرى ٠ وهنا لا مفر للطبيب النفسى من ان يمارس الدور الطبى التقليدى ازاء الحالات التى يكون فيها عـــلم الميلاد الجـــديد اكبر من قدرة تحمل صاحبه له الذى يتحول هنا الى مريض بالضرورة من واقـــع انهزامه أمام الالم (وللطبيب مبرره هنا لممارسة درجه من الوصـــاية الابوية والعلاج القهرى) بينما فى حالة الازمة التطورية نجد الطبيب ، فى حاجة الى دور الحكيم أو الفيلسوف وعلاقته بمريضه (ان جاز هـــذا التعبير) اقرب الى علاقة رفيق فى الطريق توجد فيها درجة لا بأس بها من النـــدية والمشاركة والتبادل ٠ وهو يثرى من هذه العلاقة ويمارســـها مختارا حتى ولو كان فى اكثر الاحيان يتقاضى أجرا (الذى يكون فى هذه الحالة اقـــل الحاحا) ٠ والحالتان تمثلان نمطين فى فهم المريض : النمط الطبى التقليدى والنمط التطورى أو نمط النمو Growth model وقدرة المعالج على الرؤية من خلال النمطين تجعله اقدر على عدم الخلط بين نوعيتى الالم — الم الولادة وألم الاجهاض — وبين نوعيتى التأزم — الازمة التدهورية والازمة التطورية — وبين صرخة الاقبال على الحيـــاة وصرخـــة الخوف من المـــوت ٠٠ وبواسطة هذا الفهم فانه يستطيع ان يعاون من يطلب معونته فى الاتجاه الذى يختاره طالب المعونة بدلا من فرض اختيار عليه من الخارج ٠

والمريض الذى يختار الهزيمة والاستسلام ويحتاج الى من يعينه يحتاج الى هذه النوعية من المعاملة بينما الذى يختار التحرر يحتـــاج الى من يستطيع ان يحترم هذا الاختيار ٠ فاذا عمم المعالج وأعطى الجميع نفس المعاملة فانه فى الحقيقـــة ينكر وجود نوعية ما من المرضى وهو بالتالى يفرض عليهم اختيار الامر الذى يزيدهم مرضا بان يزدادوا اعتمادا عليه ٠

ما قيمـــة الاســـــــماء ؟

هذى اســـــمها زهرة

ســـــمها ما تشـــاء

ســـــــوف تبقى عطـرة

شكسبير (روميو وجولييت)



What's in a name .
That which we call a rose
By any other name would smell as sweet
Shaksepeare Romeo and Juliet

الفصل الثانى

الجهاز النفسى والتكيف

من منطلق الاساس النظرى الذى أوضحناه فيما سبق نستطيع ان نتقبـــل التباين فى النظريات الموجودة لدى علماء النفس البارزين اذ كثيرا ما نجد ان الاختلافات وهمية ولا تعدو ان تكون اختلافات فى الاسماء لا غــير ٠

فاذا حاولنا فهم الشخصية من منطلق الصراع بين الاضداد والجماع الذى يجمع بينهما لوجدنا هذه النغمة تتكرر فى النظريات المختلفة وسنبين ذلك فى بعض الامثلة ٠ الا ان ذلك لا يعنى ان يكون الطالب بدون نظـــرية يرتكن اليها فيصير عائما متنقلا بين نظـــرية وأخرى فالافضـــل له أن يحدد لنفسه قاعدة انطلاق نظرية تكـــون بمثابة الوعاء الذى ينتقل بواسطته الى المعرفة الكلية ٠ اذ أن المعرفة الكلية وهى تشمل الوجدان والعقل والتطبيق جميعا لا غنى لها عن أحد عناصرها وهو العقل وبالتالى لا غنى لها عن الوعاء النظرى ٠ واذا كنا فى هذا الكتاب نلتزم بقاعدة نظرية معينة وهى نظرية التحليل النفسى فليس ذلك لانها تمثل الصواب وما دونها خطأ ولكن لانها لغة كثر استعمالها وغنية بالابحاث والكتابات علاوة على أن من خلال هـــذا الانتشار تعرضت لتأثيرات شتى مما أعطى مفاهيمها قـــدرة على التطـــور تجاوزت حدود الالفاظ التى كانت تنغلق فيها أحيآنا ٠

الاطروحة : ــ اريد أن افعل ماأشاء :

نستطيع ان نرى صراع الاضداد فى نظرية التحليل النفسى للشخصية لقد سلمنا أنه فى البداية كانت الغرائز عبارة عن خزان من الطاقة الهائمة الفوضوية تسعى الى الاشباع دون اعتبار لواقع مادى او حضارى منطقها بدائى لايتبع خطا واضحا ولا نظاما ٠٠ انها الفوضى بعينها ٠٠ صحيح أنهـــا مولد للطاقة لكنها من الجائز ان تكون مدمرة هدامة او تكون خلاقة مبدعة ٠٠ طاقة قد ينتج عنها اللعب واللهو والمرح أو الفن والشعر والجمال ٠٠ وقد سميت هذه المنطقة من الشخصية بـــ « الـــ هو » أو « الغرائز » Id وتمشت هذه النظرة الفرويدية الكلاســـيكية مع مفاهيم علماء الطبيعة آنذاك والمبنية عـــلى مفاهيم نيوتن Newton وهلمهولتز Helmholtz وهى تضع الطاقة (الغرائز) فى مواجهة المادة او التكوين (الانا والانا الاعلى) الا ان هذه المفاهيم تغيرت فى كل من الطبيعة وعلوم النفس ففى علوم النفس نجد التيارات المخالفة للتحليل النفسى تقوم بدور المنشق عليه فترفضه مؤكدة أن الانسان كل وليس أجزاء وشخص وليس مجموعة أجهزة نفسية ٠ فهذه نظرية التحليل التفاعلاتى Transactional analysis

اريك بيرن Eric Berne تصف الشخصية على انها وحدة واحدة فهى ذات أو أنا تتواجـــد فى حالات مختــــلفة Ego states وكانت الحالة البدائية المقابلة للغرائز عند فرويد هى حالة الانا الطفولية Child ego state (للاختصار Child أو حتى C وهذا فردريك بيرلز Perls وهو أحد مؤسسى مدرسة العلاج الجشـــطالطى يســـــتخدم لفظا دارجا under - dog وهى تعنى المغلوب على أمره ولعلها تشبه لفظ « فرفور » فى اللغة الدارجة • وهو هذا الجانب من الشخصية الذى يمنع من الظهور ويحرم من التعبير (فى مقابل الـ « سنيد » أو Top — dog • ونجد لانج Laing اقتباســـا من وينيكوت Winnicott يتحدث عن النفس الحقيقية True self وهى النفس البدائية الطبيعية التى ينشأ بها المرء قبل ان تفرض عليه القيم الخارجية بل اننا نجد فى تراثنا وصـــــفا لهذا الجانب من الشخصية فى فكر الفيلسوف الصوفى الاسلامى الامام الغزالى حينما يتكلم عن النفس الامارة بالسوء •

وفيما يبدو ان اعتراض كل مجدد لم يكن على الفكرة ذاتها وانما على ما اصاب الفكرة من جمود بعد أن فقدت محتواها الوجدانى ازاء انتقالها من وجدان وعقل مكتشـــــفها الى عقول تلاميذه دون وجدانهم • اذ أن كل اكتشـــاف جديد لا يعدو ان يكون صياغة جديدة للاكتشـــاف الإصلى ولكن بألفاظ جديدة رغم اصرار المكتشف على أن اللفظ الجديد هو تعبير عن معنى جديد الا انه فى الحقيقة معنى جديد بالنسبة للفظ الذى فقد معناه الحقيقى نتيجة سوء الاستخدام •

وتأتى المدرسة البريطانية للتحليل النفسى التى تعرف بنظرية علاقات الموضوع Object - relations Theory التى ســـاهم فى بلورتها فيربيرن Fairbairn وجنتريب Guntrip وغيرهما فى محـــاولة للحفاظ على التراث التحليلى فتخلق جماعا بين نظريات يونج Yung وفرويد Freud من جانب وبين ميـــلانى كلاين Klein والفرويديين الكلاسيكيين (مثل آنا فرويد) كما انها تأثرت وأثرت بدورها على بعض المحللين الوجوديين أمثال لانج Laing وكوبر Cooper وغيرهم • تقول هذه النظرية ان الذات فى البداية كانت وحدة بدائية متكاملة الا ان تفاعلها مع البيئة أو المواضع الخارجية أصابها بالانشقاق الداخلى ، فالذات لا وجـــود لها بدون موضوع والداخل لا شــــكل له بدون الخارج • وبحكم وجود التناقضات والصراعات فى الواقع الخارجى فان الصـــورة المقابلة لذلك تأخذ وجودها داخل الشخصية فى صورة انشقاقات للذات Ego - splitting فاذا أخذنا الشـــكل الاولى للذات فان المرحلة الاولى كما ذكرنا تتصف بالغرائز التى تبحث عن الاشـــباع وتكون مدفوعة بقانون البحث عن اللذة وتجنب الالم • هذه هى الانا الليبيدية Libidinal ego تجد المقابل لها فى العالم الخارجى فى صورة الموضوع المثير Exciting object الذى يكون بمثابة الداعى الى الاشباع والمغرى بالتعبير عن الرغبـــات • فاذا كانت الام هى ذلك الموضوع فالطفل يرى فيها هذا الجانب المشـــبع

المثير والمغرى بالتعبير • فهذا الذى كان يسمى عند فرويد بالهو كجهاز مستقل اصبح ـ علاقة بين اثنين : الانا الليبيدية والموضوع المثير Libidinal ego - Exciting object ولا يكتفى بهذا الوصف انما تذهب النظرية الى أبعد من ذلك فتصف الموضوعات الداخلية Internal object وهى عبارة عن المقابل النفسى الداخلى للموضوع الخارجى والذى يحدث بواسطة الاستدماج Introjection فالانا الليبيدية فى علاقتها بالموضوع المثير الخارجى خلقت وجودا داخليا لهذه العلاقة • وقد يستمر هذاالوجود خافتا او مع ازدياد حدته يتحول الى جسم غريب بالداخل وقد لا يحتمل فيسقط مرة اخرى على الخارج ويتصور المرء ان العالم الخارجى يغويه ويثير غرائزه • نعود فنقول ان هذه هى الاطروحة : رغبات ودوافع غريزية تسعى الى الاشباع • الا ان وجود الرغبة لابد وان يفترض وجود ما يمنع هذه الرغبة من الظهور وهنا تأتى الاطروحة المضادة •

الاطروحة المضادة : ـ يجب الا افعل ماأشاء :

ما هذا اذن الذى يمنع الغرائز من الاشباع ؟ بل هل لابد ان يوجد ما يمنعها من الاشباع ؟ أو ليست الجنة ان يفعل المرء ما يشاء (او يشاء ما يفعل ـ فالمهم أن يكون هناك انسجام وانعدام للصراع وبالتالى انعدام للالم والاحباط والخوف) ولكن الجنة أمنية وهى بحكم التعريف لا توجد فى الدنيا وبالتالى فأنه طالما الكائن حى اى فى هذه الدنيا ، فان ما يرغبه لابد وان يقابل ما يمنع من تحقيق هذه الرغبة • لعلها الرغبة المضادة التى تقول للغريزة « لا » وتمنعها من الانطلاق العشوائى •

ما هو هذا « النظام » ازاء « الفوضى » الغرائزية ؟ او « الشكل » فى مقابل « الطاقة » ؟ •• يصف فرويد تطور الجهاز النفسى من الهو البدائى الذى لا يقدر الواقع حق تقديره فيصطدم به اذ ان هناك استحالة ان يفعل هذا الطفل ما يريد وهو ابعد ما يكون عن القدرة على مجابهة الواقع المادى المعقد الذى يعيش فيه فالطفل الانسانى ـ اكثر من غيره من الكائنات الحية •• يولد ضعيفا هزيلا لا يستطيع اطعام نفسه او تحريكها او حمايتها من المخاطر الطبيعية • وهو يجد هذه الحماية من أمه أساسا التى تطعمه وتأويه وتحمله وتوفر له الراحة والنوم • وما عليه الا ان يطلب الطعام فيأتيه وان يرغب فى النوم فيترك لحاله • ولكن الواقع ليس تحت أمره بهذه الدرجة المحكمة فقد يجوع ويطلب الطعام فلا يجده فى لحظتها وليس عنده من رصيد خبرة عن مرور الزمن ما يجعله يؤجل رغباته او ينتظر فيتصور ان اللحظة أبدية ويصاب بالذعر ولهذا يبكى بشدة لمجرد ان يتأخر عنه الطعام ولو للحظة • لكن هذا الاحباط وهذا الالم لا يحتمل ، ويتعلم الطفل كيف يمنع رغباته من مداهمته بهذه الدرجة •

انها الرغبة المضادة تتكون تدريجيا داخل نفسه نابعة من وجود واقع

محبط وليست فى عزلة عن هذا الواقع الخارجى · هذا الجهــاز النفسى سماه فرويد « الانا الاعلى » Super ego وهو ليس مرادفا للضـــمير الذى لا يعدو أن يكون الا هذا الجزء من الانا الاعلى الذى يصل الى درجة الوعي اذ ان الانا الاعلى اغلبه لا شعوري وهو بالتالي يخضع لمنطق مشابه للهو من حيث انه لا شعورى وبدائى بل انه اشبه بالصورة المعكوسة للهو ، ويستمد قوته منه · فالانا الاعلى يتميز باللامنطق فى متطلباته وهو يغالى فى القسوة أو فى الطيبة ·

انه يقابل عند بيرن حـــالة الذات الابوية Parental ego state أو للاختصار يرمز اليه بـــ P . بينما يتحدث بيرلز عن « الفتوة » أو « السيد » Top - dog ويتحدث لانج عن النفس الزائفة والتى تتكون بدافع الرغبة فى ارضاء الآخرين على حســـــاب التلقائية ، كما اننا نجد المقابل له فى وصف الامام الغزالى للنفس البشرية فيصف هذا الجـــانب بـ « النفس اللوامة » وهى مرحلة متقـــدمة على النفس الامارة بالسوء ·

اما نظرية علاقات الموضوع فانها تستخدم تســـمية « الانا الليبيدية المضادة Antilibidinal ego ولعل ما تضيفه هذه النظرية انها تتحدث عن الاجهزة الداخلية فى تقابل مع الواقع الخارجى فالانا الليبيدية المضـــادة تقابل فى الخارج الموضـــوع المحبط Frustrating object وهما فى تفاعل مستمر يغذى كل منهما الآخر · فالموضوع يحبط الذات بأن يمتنع عن اشباعها فيتكون داخل الذات هذا الجزء المنشق فى صورة الانا الليبيدية المضادة فى علاقة داخلية ايضا مع الموضوع الذى يصبح له تمثيل داخلى بواسطة الاستدماج وهو ان يبقى فى داخل النفس فى صـــورة جسم غريب مندمج تماما مع بقية الشخصية فهو يكون بمثابة موضوع داخلى شـــــبه مستقل · وكلما زاد الانشـــقاق كلما زاد الصراع الداخلى وبالتالى الالم والمرض · وحين لا يطاق الجسم الغريب بداخل الشخصية فانه يكبت ويبعد عن الشعور الا ان الحاجة تجعل من الضرورى ان تلجأ الشخصــــية الى وسيلة اخرى للتخلص من هذا الجسم الغريب وهنا تلجأ الى عملية الاسقاط Projection بأن تضفى صفات هذا الجسم الغريب بالداخل على العالم الخارجى فيتصور المرء ان الاضطهاد او الاحباط او غير ذلك من الصفات الموجودة بداخله انما هى صادرة من الخارج فى مقابل الاطروحة ·

هكذا تتكون الاطروحة المضادة : التحكم فى الغرائز وينشأ الصراع بينهما ولكن بتركهما وحدهما فكل نقيض يريد القضاء على الآخر فى نفس الوقت الذى يكون فيه وجوده مرتبطا بوجود الآخر فكلاهما لا مناص له من وجود نقيضه مع الحاجة الى الغاء ذلك الوجود · ومن هنا جاءت الحاجة الى الجماع الذى يستطيع ان يحتويهما ·

الجماع ـ اشاء أن أفعل ما يجب :

افترضنا فيما سبق ان الرغبة تقابل برغبة مضادة وان هذه الاضداد لها ما يمثلها فى نظريات الشخصية التى اشرنا اليها بل بعضها ممثل منذ قديم الازل وهذه الاضداد انما هى مظهر من مظاهر تطور المفاهيم كما بينا من ان الشيء يولد ضده فى صراع ثم يولد الحل فى قبول الصراع · فما هو هذا الجماع الذى يجمع الشيء وضده فى النفس البشرية ؟

هنا نجد وصف الانا (أو الذات) بصفتها الجهاز النفسى الذى يتوسط بين الداخل والخارج ، الداخل بمحتواه من الهو والانا الاعلى والخارج بمواضيعه المختلفة أى العلاقات الانسانية · والانا كما لو كان فى وساطته هذه يخدم عدة قوى متناقضة : الواقع فى الخارج والغرائز والانا الأعلى قد الداخل فهو اذن اداة التكيف مع البيئة ويحوى لهذا وظائف التكيف المختلفة ومنها : الذكاء والذاكرة والحكم على الامور والتفكير التجريدى واختيار الواقع والادراك والاحساس بالواقع علاوة على القدرة على تكوين العلاقات والحيل الدفاعية المختلفة التى بواسطتها يحمى النفس من المداهمة بواسطة الغرائز · وقد كان الرأى فى البداية ان الذات تتكون من احتكاك الغرائز بالواقع الا ان الاتجاه الحديث فى التحليل النفسى والذى يعرف بسيكلوجية الانا Ego - psychology اعطى أهمية لما يسمى بدائرة الانا الخالية من الصراع Conflict - free ego sphere وهو الذى يحوى تلك الوظائف التى تتكون بغض النظر عن الصراع أو الاحتكاك بين الغرائز والعالم الخارجى ولكن بحكم النمو والنضج البيولوجى الطبيعى · ولعلها ليست مصادفة ان يأتى الاهتمام بوظائف الانا فى تاريخ التحليل النفسى بعد الاهتمام الاولى بالغرائز عند فرويد ثم اهتمامه بالانا الاعلى ثم الانا · واذا كان الهو يمثل الرغبة الغريزية البيولوجية والانا الاعلى تمثل الرغبة المضادة والتى تتكون من احتكاك الغرائز بالواقع الخارجى وبالتحديد الواقع الانسانى الاجتماعى وكان الانا هو الوسيط بين هذا وذاك من جانب وبينهما كعالم داخلى وبين العالم الخارجى فانه لا مناص من تطور مفهوم الانا لكى يكون الجماع الذى يوفق بين الاضداد وهو لهذا فى تطوره يقترب تدريجيا كلما نجح فى الجمع بين هذه الاضداد او ان يتعامل معها كما هى بدون الحاجة الى تشويه او تحريف · أى أن نجاح الانا فى ان يكون جماعا حقيقيا للاضداد يتوقف الى حد كبير على تخليه عن وظائفه الدفاعية مع تنمية الوظائف الاخرى الخارجة عن دائرة الصراع وبهذا فانه يتعامل مع الواقع كما هو ويتكيف بطريقة أفضل بدلا من فقدان طاقته فى التوفيق بين الاطراف الداخلية المتصارعة · وهذا بالطبع يتوقف على قدرته على ان يكون مترجما صادقا لرغبات الاطراف المختلفة فتجد الغرائز من خلاله وسائل للتعبير لا تتعارض مع الرغبات المضادة فى الانا الاعلى أو مع حدود الواقع الخارجى ·

واذا كنا فيما سبق نؤكد حتمية الصراع ووجود الاشياء فى صورة

أضداد فكيف يمكن للانا ان يوفق بهذه الصورة • ان نهاية الصراع كما بينا يأتى بقبول وجوده الا ان هناك جانبا آخر لتطور الصراعات وهو التطور فى شكل الصراع فالصراع فى مفهومه البدائى يعنى رغبة جانب فى التغلب المطلق على الجانب الاخر فيأخذ الشكل المدمر وذلك لكون الطرفين على طرفى نقيض فيأخذ الصراع شكل أن ما يكسبه طرف يكون خسارة للطرف الآخر win - lose , zero - sum أى نمط الخسارة ـ مكسب » ولكن هناك شكلا اخر للصراع حيث يمكن ان يتحول الصراع الى مكسب للطرفين أو ما يعرف بنمط « المكسب ـ مكسب » أو « win - win , Sum - sum » أى نستطيع ان نقول أن الصراع يصير فى اتجاه الانتهاء بأن يأخذ طريق الاضمحلال الكمى وذلك بأن تخفف حدته ويتغير شكله فالصراع العنيف يتغير الى صراع محكوم ثم صراع هادىء ثم حوار ثم تعاون. واللعبة التى تتصف بالمكسب ـ خسارة تتغير الى لعبة مكسب ـ مكسب مع تقارب درجة المكسب فى الطرفين وذلك أسوة بحركة البندول من نقيض الى نقيض مع الاقلال من درجة التأرجح حتى تقترب من نقطة السكينة التامة فى الوسط •

ولعل هذه المحاولة البدائية التى يتولاها الانا للوصول الى حالة من الوفاق بين الاضداد عن طريق تخفيف حدة الصراع هو الذى يعبر عن مبدأ الثبات Constancy بينما الوصول الى انعدام الصراع تماما هو ما يتمثل فى مبدأ النيرفانا Nirvana والذى يعتبره فرويد تعبيرا عن غريزة الموت وهو يتفق مع النظرة الى ان السكينة التامة او الجنة لا توجد فى الدنيا انما هى فى الاخرة بعد الموت • كما ان ذلك يتفق مع استحالة الانعدام التام للصراع فى وجود الحياة فالنفس المطمئنة تماما هى التى تنطبق عليها الآية « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية » (١) • فالوجود على قيد الحياة مرتبط بالالم والوجود يسعى الى التغلب على الالم والتغلب النهائى على الالم يساوى الموت • فرغبة الحياة كما تصورها فرويد اوصلته بعد سنين من البحث الى انها تقابل رغبة الموت •

نعود الى وضع الانا فى الصراع فاذا كان الانا فعلا قد توصل الى السكينة التامة وخرج خارج دائرة الصراع وأصبح بفضل نضجه متطورا مطمئنا تماما وبالتالى تساوى مع الموت فما هو وضع الانا فى الحياة أى : هل يمثل جانبا من جوانب الصراع أو ينحاز الى جانبه ؟ ان التحليل النفسى قد وصف الانا فى البداية كما لو كان اطارا او تكوينا نفسيا structure بدون طاقة وانه يستمد طاقته من الغرائز أسوة بالانا الاعلى • ثم صور كيف ان الطاقة الغريزية أو الليبيدية تشحن الانا او اجزاء منه بالطاقة

---

(١) سورة الفجر

وكيف ان الانا ينحاز الى جانب ضد اخر . بل كيف ينشق وينحاز جزء منه الى جانب وجزء الى جانب آخر .

بهذا المعنى فان الانا كجهاز نفسى يعتبر تطورا للاجهزة البدائية نحو التعالى عليها وتجاوزها لغم انبثاقه منها .

ولعلنا نستطيع هنا ان نشير الى بعض النظريات الاخرى فالتحليل التفاعلاتى يسمى هذا الجماع حالة الانا الراشدة او adult ego state او مجرد الراشد adult وللاختصار (A) والذى يمثل ايضا العقل البحت وذلك فى حالة انعزاله عن الطرفين او تحوله الى طرف فى الصراع معهما .؟

كما نجد هذا الجماع عند الوجوديين يأتى تحت وصف الوجود الصادق authentic existence ويتحدث الامام الغزالى عن النفس المطمئنة وهى تمثل ذلك الوجود الذي يتعالى على الصراع وفى نظرية علاقات الموضوع نجد استخدام لفظ Central ego أى الانا المركزية والذى ينشأ نتيجة للتفاعل بين الانا البدائية وبين الموضوع المثالى ideal object أى الذى لا يغرى ولا يحبط انما يستجيب حسب متطلبات الموقف أى فى حدود امكانيات الواقع .

نلخص القول بأن نعيد التأكيد ان النفس البشرية كل متكامل وان العلم العقلانى هو الذى يفتعل تقسيمها الى اجزاء ، فاذا تحدثنا عن الغريزة وجب افتراض ما يتحكم فى الغريزة ، ولوجود تناقض بينهما وجب مرة أخرى ايجاد جماع يجمعهما . وسوف نجد ان الغريزة والتحكم ما هما الا وجهان لنفس العملة بينما الجماع هو الذى يحتويهما بقدر مايتعالى عليهما . فالاجزاء كلها مصدرها من بعضها والتناقض خدعة عقلية بل ان التناقض الفكرى بين النظريات المختلفة هو الآخر وهمى ، وكل باحث عن الحقيقة وان رآها واحدة فان قصور العقل هو الذى يجعله يتوهم ان ما يصدقه هو فقط الذى يمثل تلك الحقيقة . والاختيار فى النهاية بين النظريات لن يكون محكه من منهم على حق من عدمه بقدر ما هو من الذى استطاع ان ينقل الصورة بوضوح وتكامل اكثر ، ومن الذى استخدم اللغة التى تستطيع التعبير لأكثر قاعدة من طالبى العلم وعلى مدى أطول مدة من الزمن .

الفصل الثالث

مراحل التطور

ان التفرقة بين التطور والتكيف تفرقة مفتعله ولذا فالتناقض بينهما ظاهرى اذ بوسعنا ان نرى فى التطور وسيلة للتكيف ازاء عالم متغير بما ان الجمود فى الامد الطويل يتعارض مع التكيف ويؤدى الى الاندثار ، كما ان التكيف وسيلة للتطور بما ان التغير الدائم والمستمر يتعارض مع الوجود المستقر فما ان يوجد الشىء حتى يتغير شكله أى يتحول وجوده الى وجود آخر أو يموت ويولد من جديد ٠

ان التطور والتكيف اذن فى حاجة مستمرة كل منهما الى الآخر وفى تفاعل دائم ، الا ان رغبة عقولنا فى التنظير والتحليل تجعلنا نقسم الاشياء الى ثنائيات متضادة وظواهر متفرقة ومع هذا فان هذه المحاولات من جانب عقولنا يمكن أن تكون كخطوة نحو نهايتها والوصول الى المعرفة الوجدانية الكلية وارجاع الظواهر المتفرقة الى أصول واحدة ٠

واذا كنا فى هذا الفصل سوف نتحدث عن جانب بعينه وهو التطور فعلينا ان نتذكر باستمرار اصطناعية التفرقة وضرورة الربط بين الجزء والكل ٠

الطفل الصغير مرن متطور :

لعل الطفل فى الحوار الانسانى يمثل جانب التطور فى مقابل التكيف فهو بحكم تحركه المستمر فى اتجاه النمو يمثل التغيير والابداع والثورة فى مقابل استقرار الاب ومحافظته ٠٠ انه الممكن فى مقابل الواقع « المتاح » والمستقبل فى مقابل الحاضر النابع من الماضى ٠ ولو نظرنا الى تكوين الطفل البيولوجى لوجدنا المقابل فى خلاياه غير المتميزة التى تحمل امكانيات النمو والتشكيل الجديد فبدايته غير محدودة ويستطيع ان يتطور الى عملاق أو قزم أو نحيف أو سمين ٠ واذا كانت اجناته الموروثة تضع له الخطوط العريضة فان امكانيات تغيير مجرى هذه الخطوط بفعل البيئة موجودة وممكنة بدرجة تكاد تكون متساوية ٠

واذا كانت الطفولة بصفة عامة تتحدد بفترة زمنية ضئيلة اذا قورنت بعمر الانسان الا ان وزنها يفوق كمها المحدود من حيث التأثير ٠ وقد بين لنا التحليل النفسى اهمية الخبرات المبكرة فى حياة الانسان بل لقد ذهب فرويد الى أن تكوين شخصية الانسان تتحدد فى السنوات الخمس الاولى ٠

كما نرى فى الامثلة الشعبية ما يشير الى نفس هذا الاعتقاد اذ يقال ان « الديك الفصيح فى البيضة بيصيح » ٠

ولكن المبالغة فى هذه النظرة جعلت الامل فى التغيير والعلاج فى الكبر يشوبه التشاؤم ، وأصبح العلاج عبارة عن محاولة مطولة لاعادة الشخص الى طفولته المبكرة واعطائه فرصه جديدة لاعادة تشكيل نفسه ٠ ولذا نشأت اتجاهات حديثة فى التحليل النفسى فى انشقاقات يونج Jung وأدلر Adler تطورت وتبلورت فى تنظيرات اريكسون Erikson حول مراحل عمر الانسان المختلفة بادئه من الطفولة حتى الشيخوخة ٠

فالانسان وان كان يتركز نموه فى السنوات الاولى فانه لا يتوقف عند هذا الحد وانما يمر بمراحل متعددة بعد ذلك قد تصاحب كل نقلة فيها أزمة داخلية تهز بنيانه وتكوينه بدرجات مختلفة العنف قد ينتج عنها اعادة لتشكيل الشخصية الى افضل أو الى اسوأ ٠

التوالد الذاتى او تفتح الصفات الكامنة :

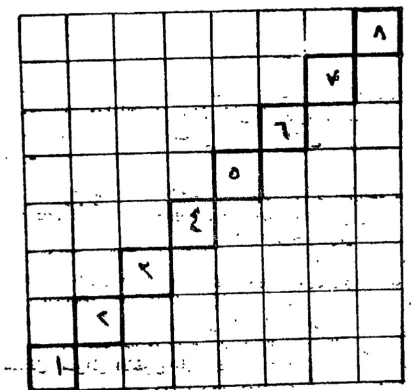
رغم أن وصف المراحل المتميزة قد يوحى بأنها منفصلة ومتتالية الا انها فى الواقع ليست كذلك فسمات المراحل جميعها موجودة فى كل المراحل أسوة بوجود جميع صفات الانسان المكتمل النمو فى البويضة المخصبة ٠ كما ان الشيء الذى يجعلنا نصف المراحل المختلفة كما لو كانت منفصلة هو ان هناك خصائص مميزة وبارزة فى كل مرحلة ٠ فالبويضة مهما كانت محتوية لجميع صفات الانسان فهى رغم ذلك بويضة ولها صفاتها وخصائصها المحددة والطفل مهما كان حاويا لكل صفات الراشد كامكانية فانه مازال طفلا ويتميز بصفات الطفولة ٠ وكذلك فان العكس صحيح فالانسان مهما كبر فانه يحوى بداخله جميع الخبرات والمؤثرات والذكريات التى تراكمت عليه منذ تكوينه ولعل التعبيرات الشائعة عن كون هذا الطفل عجوزا أو ذلك العجوز يحمل براءة الطفولة فى عينيه تمثل المعرفة البديهية لهذه الحقيقة ٠

ان فكرة التوالد الذاتى epigenesis والتى تبلورت فى علم الاجنة وجدت تطبيقها فى نظريات فرويد عن الجنس وموجزها ان الذى يوجد فى البداية اساسا هو امكانية النمو ونشوء الاعضاء والصفات المختلفة التى تميز كل عضو ولكن هذا النمو يحدث بالتراكم وفى خطوات متتالية ٠ فاذا اخذنا الجنين فاننا نجد مثلا ان اليد لا تنشأ من البويضة ذاتها ولكنها تنشأ بعد تكوين الشكل العام للجسم وكذلك يتلو نشوء اليد نشوء الاصابع ، وهكذا بالتدرج والترتيب المتتالى ٠

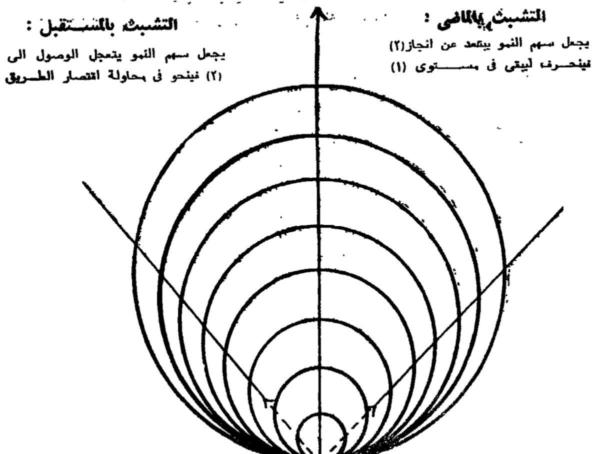
فاذا انتقلنا من هذا الى النمو الانسانى فيما بعد ومن منطلق وصف الجوانب النفسية والاجتماعية فسوف نجد كذلك ان كل مرحلة تتميز بانجاز ما لابد ان تتخطاه قبل ان ينتقل الفرد الى المرحلة التالية الا ان وجود هذا

التحدى للانجاز لا يعنى انعدام دور التحديات التالية او السابقة فى ذات الوقت ولكنه يعنى ان هذا الانجاز يأخذ مكان الصدارة بالنسبة لغيره ، وانه كلما كان اكتماله تاما كلما كان التفرغ للانجاز التالى اكثر وكلما قل ميله لاعاقة ما يتلوه ٠

نستطيع ان نصور هذا التداخل فى صورة دوائر متزايدة تحتوى كل دائرة على ما يسبقها كما تحاط ببوادر المراحل التالية مع وجود غلبة لكل دائرة فى كل فترة زمنية من عمر الفرد ، (وهى تعتبر بديلا للشكل الذى رسمه اريكسون فى صورة مربعات كما فى الشكل ٣ ـ ١) نجد ان المرحلة الاولى من عمر الانسان يغلب عليها تحدى الانجاز الاول (وهو كما سنفصله فيما بعد يمثل الحصول على الامان والثقة) ممثلا فى الدائرة (١) ولكن اجزاء الدائرة الاخرى كلها موجودة فى تلك الفترة الزمنيـــة ولكن على الهوامش وكلما كان النمو طبيعيا (فى اتجاه السهم) الرأسى فى الشكل ، كلما كان تداخل الدوائر الاخرى اقل وكلما كان الانتقال للدائرة التاليـــة اسهل ٠ فالانتقال الى الدائرة (٢) (وهو كما سنفصـــله فيما بعد يمثـل الانجاز الثانى الخاص بالحصول على الاســتقلال وتحديد معالم الذات فى مقابل الموضوع) يكون فى الاتجاه الرأسى بحيث تكون الغلبة للدائرة (٢) اما اذا تمسك الطفل بالانجاز الاول واستمر انشغاله به فان نموه ســوف ينحـــرف عن الخط الافقى بحيث يبقى للدائرة (١) درجـــة من الغلبـــة ، (ونســـتطيع ان نمثل هذا الانحراف بســـهم متجـه يمينا مثـــلا كتمثيل للمحاولة بالاحتفاظ بمزايا الماضى) ٠ ولكـــن الانحـــراف يمكـــن ان يأتى نتيجة لسبب معاكس وهو ان الطفل يريد ان ينتقل قبل اوانه للدائرة (٢) فهو يتجنب انجاز الامان ويحاول الحصول على الاستقلال رغم جوعه واحتياجه للامان فهو ينحرف فى اتجاه نموه (ولنكن بســـهم متجه الى اليســـار كمحاولة لتمثيل الرفض المبكر للاوضاع القائمة) فانحراف النمو هنا يأتى لان هناك محاولة مبكرة للانتقال الى المســتقبل بينما الماضى لم يأخذ حقه مما يجعل الماضى يجذبه الى الخلف وفى كلتا الحالتين ـ الانحـــراف الى اليمين او الانحراف الى اليسار ـ نجد النتيجة متشابهة من حيث ان النمو يتعطل ففى الحالة الاولى يعطله التشبث بالماضى والحنين اليه وفى الحالة الثانية نرى التلهف نحو المســـتقبل بينما الماضى لم يأخذ حقه فينتج عنـــه العودة بالتالى الى الخلف ٠



اتجاه التطور كما رسمه اريكسون : المرحلة الغالية تمثيل فى مربع ثقيل مع وجود المربعات الأخرى افقيا ورأسيا فى كل مرحلة النمو السوى



رسم بيانى بديل يمثل اتجاه التطور رأسيا وكل دائرة تمثل المرحلة الغالبة وهى تحتوى المرحلة التى سبقتها فى نفس الوقت الذى توجد على جوانبها بوادر المراحل القادمة ..

(شكل ٣ ــ ١)

وهكذا بواسطة هذا الرسم (والذى يختلف عن رسم « اريكسون ») نستطيع ان نرى وجود انجازات جميع المراحل فى كل زمن ولكن الذى يميز كل مرحلة تغليب انجاز على غيره وأنه كلما اكتمل انجاز أو (دائرة) كلما سهل ذلك اكتمال الدائرة التالية واخذها مكان الصدارة ·

تكرار التطور ـ التاريخ يعيد نفسه :

هنـــاك مبدأ آخر يحكم التطور وهـــو أن الفرديكرر تطور النـــوع ontogeny repeats phylogeny فمثلا وعلى المستوى البيولوجى نستطيع ان نرى التشابه بين البويضة والكائنات الحية الاولية ذات الخلية الواحدة ثم نرى كيف تنقسم البويضة بعد تلقيحها الى خليتين ثم الى اربع خلايا وتشبه الكائنات الحية البدائية المتعددة الخلايا ، ثم كيف تمر بمراحل تشبه الكائنات الحية المائية ثم الكائنات الحية الارضية وتزداد تعقيدا حتى تقترب من شكل الحيوانات المتقدمة ولها ذيل واضح ينقرض تدريجيا حتى تقترب من شكل الانسان · فالذى حدث فى التطور البيولوجى عبر ملايين السنين يتكرر داخل الرحم فى فترة زمنية قصيرة ·

ولو تتبعنا تطور الطفل فى الانسان بعد ولادته حتى نضوجه لوجدنا تكرارا مشابها لما مر به الانسان فى تطوره الاجتماعى منذ بدأ فى الغاب حتى كون مجتمعاته الحديثة المعقدة ، وهى تشـــبه ما وصـــفه علماء الانثروبولجيا والاجتماع عن تطور الجنس البشرى ومجتمعاته ـ ولعـــل العوامل التى تختصر وتعجل بهذا التطور السريع فى السـنوات المحددة للطفولة والذى يكرر آلاف السنين من تطور الجنس البشرى ، ولعل هـــذه العوامل ترجع الى التربية وانتقال التراث من جيل الى جيل وأن كان يونج فى نظرياته عن اللاشعور الجمعى Collective unconscious يميل الى توارث هذه الصفات المكتسبة على مر العصور فى صورة اســـتعدادات موروثة نعتها بالنمط الاولى archetype ويصف اريكســون فى مراحل الطفولة المختلفة نماذج السـلوك المختلفة التى تطابق النظم الاجتماعية بل تساهم فى ايجادها وعلى الجانب الآخر فهو يصف النظم الاجتماعية التى تنمى فى الطفل نفس تلك الصـــفات· فالتفاعل بين المجتمع والفرد تفاعل متبادل مستمر ، فليس الفرد هو الذى يخلق المجتمع ولا المجتمع هو الذى يكون الفرد انما كل منهما انعكاس للآخر يتأثر به ويؤثر فيه · وهو بهـــذا التنظير قد أوصل بين نظريات فرويد البيولوجية التى تؤثر على التكوين النفسى للطفل بصورة فعالة ويعرفون بالمدرسة الحضارية Cultural واحيانا بالفرويديين الجدد Neo - Freudians · وجعل من هذا التناقض تناقضا ظاهريا ، فما هو موجود فى داخل نفسية الانسان كان اصـــله موجودا بالخارج أى فى المجتمع والبيئة والحضارة ولكن فى مقابل ذلك فان ما يوجد فى الخارج كان موجودا اصلا فى الداخل وأسقط على الخارج وشكله·
ومن هنا فاننا لن نكتفى حينما نتحدث عن تطور الطفل النفسى بوصف

العوامل النفسية الداخلية ولكن لابد لنا أن ننظر اليها فى اطار البيئة التى يوجد فيها الطفل مما سوف يدخلنا بالضرورة الى دراسة العوامل التاريخية والاجتماعية والحضارية والسياسية والاقتصادية والدينيـة التى تؤثر على التكوين النفسى للانسان وتتأثر به · وسوف نرى كيف أن الكل تكرار للجزء الذى هو تكرار للكل بالتالى · كما أن هذا المدخل بالضرورة يفـرض على المعالج النفسى أن يكون متفتحا فى دائرة وعيه ومطلعـا على فروع الفكر الانسانى المختلفة فالنفس الانسـانية لا يمكن أن تدرس فى عزلة عن بقيـة مظاهر الحياة بل انها مرآة دقيقة لكل ما هو فى الكون ، فصدق القـول أن « من عرف نفسه فقد عرف ربه » الا أننا نستطيع أن نذهب بهذا المبدأ ـ أى أن تطور الفرد يكرر تطور النوع ـ الى مبدأ أكثر عمومية وهو أن الخبرة التطورية على أى مستوى وبأى حجم هى تكرار لما سبقها من تطور وقد يكون حجم هـذه الخبرة التطورية لا يتعـدى ثوانى أو دقائق وهى خبرة كثيرا ما توصف فى لحظات الالهام والرؤية الحدسية الشاملة التى يمر بها كثير من الفنانين والعباقرة والمتصوفين والانبياء وتكاد تشـبه فى حدتها خبرة الجنون («وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون») (١) هذه الخبرات ذات امتداد زمنى اطول بدرجات يمتد اطارها من حياة الفرد كلها ontogeny الى لحظات معدودة لعلنا نستطيع أن نشير اليها بلفظ microgeny فى حالة الخبرة المحدودة جدا زمنيا (ثوانى) و macrogeny فى الخبرة الاطول زمنيا · وقد تحدث مازلو Maslow عن الخبرة القمية peak experience والخبرة الهضبية Plateau experience لوصف حالات الوعى المتسعة هذه ·

وهناك تطبيق اوسع لهذا المبدأ اذا أخذنا فى الاعتبـار البعد الزمنى للماضى والمستقبل وهو أن هذه الخبرات التـطورية ليس فيها مجـرد تكرار للماضى ولكن فيها أيضا امكانية التبؤ بالمـ ontogeny anticipates phylogeny فكما ذكرنا أن الكائن الحى يحوى بداخله امكانية النمو والتـطور ورغم أن الصفات المميزة ليست ظاهرة ولكنها موجودة كامكانية ·· فلعل حدة الخبرة فى بعض الاحوال تلقى بضوئها على الماضى والمستقبل على السواء وقد يصل الافراط فى الاضاءة الى الاحتراق وغشيان البصيرة أى الى الجنون ·

وقد نتساءل هنا عن أهمية ذلك كله فى دراسة الطفل · ان مثل هـذا المفهوم يجعلنا نرى أن الطفل النامى المتطور المتحـرك مرآة لمـا أورثنـاه من تراث ولكننا فى نفس الوقت نستطيع أن نتعلم منه امكانية اكتشـاف مؤشرات نحو تطور المستقبل فالطفل ليس مجرد صفحة بيضاء · نرسم فيها ما نشاء ولا هو مجرد أداة سـالبة ورد فعل لما نفعل به ولكنه بما يملك من طاقة للحياة والتطور انما يتفاعل معنا بدرجة من الندية يتعلم منا ولكنه يعلمنا وينقاد لنا ولكنه ايضا يقودنا ·

وكلما أنكرنا تلك الحقيقة فى أنفسنا كلما حرمنا أنفسنا من امكانيـة التطور والنمو سواء كأفراد أو كمجتمع ·

(١) سورة الحجر ·

مراحل النمو بين الفطرة والمجتمع ـ البيضة والدجاجة :

يولد الطفل كائنا بيولوجيا ، محور وجوده أن يحيا على المستوى العضوى ومشكلته الاساسية هى الحصول على الطعام والاحتماء من المخاطر الطبيعية والطفل فى الانسان يولد ناقصا هشا بالمقارنة مع غيره من الكائنات الحية وهذا يعطيه فرصة طويلة للنمو والتعليم من البيئة بدلا من أن يولد مجهزا بغرائزه فقط وهى مهما كانت معقدة الا انها محدودة فى مواجهة البيئة · وهو لهذا يعتمد فى تكوين ذاته على البيئة اكثر من الفطرة بالمقارنة مع الحيوانات الأخرى ·

وعلى هذا يجب علينا عندما نصف تطور الانسان أن يكون منطلقنا شاملا للدوافع البيولوجية أسوة بالمؤثرات البيئية الاجتماعية ، ومن هذا وذاك تقف الذات الانسانية باعتبارها البوتقة النهائية التى تنصب فيها القوتان المتفاعلتان ·

واذا كان فرويد قد بدأ بدراسة المنطلقات البيولوجية فصور الانسان على أنه مدفوع بطاقة بيولوجية غريزية أسوة بالآلة متناسيا ارادة الذات وارادة المجتمع فان ذلك لم يكن الا مرحلة فى دراسات فرويد العميقة للنفس البشرية وهى مرحلة تشبه قصة الفيل والعميان حين ظن كل اعمى أن الفيل يشبه الجزء الذى لمسه : الا أن فرويد بشجاعة وعبقرية استطاع أن يطور النظرية ويتجاوز كل مرحلة سابقة فانتقل من خلال دراسته للأنا الأعلى الى دراسة الآثار البيئية والاجتماعية على تكوين النفس البشرية وكذلك بانتقاله من دراسة سيكولوجية الأنا الى مرحلة الجماع الذى يجمع الشىء وضده · الا وهما الغرائز (الهو) والبيئة (الأنا الاعلى) ومن كلتا النقلتين تطورت مدارس تحليلية حديثة وقعت فى نفس الخطأ الذى وقع فيه العميان والفيل فتصورت الانسان على أنه عبارة عن رد فعل للمجتمع المحيط به ، وغيرها صورت الانسان على أنه بالمفهوم السطحى للكلمة وهو هذا الجزء من النفس الذى يكون تأثره ادنى ما يكون بالعوامل الغريزية أو العوامل البيئية على السواء ·

ومن خلال هذه التصارعات الفكرية نشأت المحاولات العديدة لجمع الاضداد فكان بعض المحللين النفسيين يدرسون المدارس السلوكية (مثل الكساندر Alexander فى أواخر ايامه) وبعض السلوكيين يدرسون المدارس التحليلية . كما ان كثيرا من محللى المدارس الفرويدية الجديدة يعيدون النظر فى أفكار فرويد · بينما بعض الفرويديين التقليديين يعيدون النظر فى المدارس المنشقه · ولعل أريكسون الذى سوف نشير الى نظرياته هنا ـ من المحللين الفرويديين الذين اتسع افقهم لقبول كثير من المفاهيم المخالفة بحيث استطاع جمعها وسوف نركز أساسا فى هذا الفصل عن مراحل تطور الانسان على نظريات اريكسون مع الاخذ فى الاعتبار المؤثرات الفكرية المختلفة بما فيها التراث المحلى ثم دمج كل هذا واعادة

افرازه من بوتقة المؤلف · بينما كان فيربيرن Fairbairn وبعده جنترب Guntrip وغيرهما فى المملكة المتحدة يتجهون فى نفس الاتجاه أى الجمع بين المؤثرات البيولوجية الداخلية والمؤثرات الاجتماعية الخارجية محتفظين بالتحالف بين التيارات المختلفة فى اطـار التيار الرئيسى وذلك كبـديل لترك الاختلافات تتفاقم وتتحول الى خلافات ومدارس منشـقة فالاخلاف صـحى وبناء اذا قورن بالخلاف .

فالانسان اذن مسلح فى البداية بالغرائز التى يعبر عنها من خلال جسده وهو يواجه المجتمع (الذى هو فى التحليل النهائى غرائز الافراد الآخـرين والتى تهذبت على مر العصور فى صورة الحضارة والعرف والتقاليد) وبين هذا وذاك يتكون وعى الانسان بنفسه وبالتناقضات التى تحكمه وهى هنـا الذات أو الأنا ·

ونحن نستطيع أن ندرس الغريزة من خلال اهدافها أو وسـائلها فاذا اخذنا بالاهداف الاساسية للغريزة وهى البقاء فى مقابل الفناء (أو الحياة فى مقابل الموت أو الجنس فى مقابل العدوان أو التطور فى مقابل التكيف أو الثبات فى مقابل التغيير الخ وهى كلهـا وان اختلفت فى المظهر تلتقى فى الاساس) فاننا نستطيع أن نصف الاشكال المختلفة التى تأخذها هذه الاهداف فى كل مرحلة من مراحل النمو · واذا اخذنا بالوسائل فسـوف نرى كيف تختلف هذه الوسائل من مرحلة الى مرحلة فى النمو والتطور وكيف أن هذه الوسائل هى بدورها تشكل الاهداف وتتشكل بها كما انها تتوقف بالتالى على الجهاز البيولوجى الموجود فى حيزها فى مرحلة ما على حسب درجة النمو للكائن · وسوف يقودنا هذا الى التحدث عن الادوات والمناطق الجسـدية التى يتركز حولها الكائن الحى فى مرحلة ما ·

أما من جانب المجتمع فسوف نواجه الكيانات الاجتماعية والحضـارية (بما فى ذلك الاوضاع السياسية والتاريخية علاوة على المعتقدات الدينية والفكرية السائدة) التى تقابل المرحلة البيولوجية وتسـمح بنموها ، فهذه الكيانات الاجتماعية هى فى النهاية من فعل افراد كونوها من واقع خبراتهم الشخصية ولكنها فى نفس الوقت هى التى ساهمت فى تكوين الافراد عبر الاجيال وهى تتمثل داخل النفس البشرية فى مفهوم الانا الاعلى ·

وبين هذا وذاك نجد الانا ، وهى البوتقة التى تتفاعـل فيهـا تـلك الاضداد وهنا نستطيع أن نصف الكيانات النفسـية التى تعطيها شـكلها وصـفاتها ·

سوف ننتقل اذن الى عرض لهذه المراحل فى الاطار العام الذى وضـعه اريكسون ·

تداخل المراحل ـ الطفل عجوز والعجوز طفل :

لو تأملنا أين يبدأ عمر الانسان ، أى ما هى نقطة الصـفر فى حياته

لوجدنا صعوبة فى تحديدها حيث أن لحظة التحام خليتى الذكر والانثى فى رحم الأم تعتبر هى نقطة تحديد ميلاد كيان جديد الا انها مع ذلك لا تعتبر نقطة بداية مطلقة من لا شىء ولكن سبقتها حصـــيلة خبرة آلاف القرون من تطور الحياة تلخصت فى اجنة الخليتين اللتين التحمـ لتكونا بداية الجنين . هذا الكيان الذى يستمر فى داخل رحم الأم شبه معزول عن العالم الخارجى لمدة عشرة شهور تمرية أو أربعين أسبوعا حتى يبدأ فى تلقى أول نفس هواء له بعد لحظة ميلاده · واذا كنا نعتبر أن لحظة الميلاد هى تلك اللحظة والتى تكون بمثابة نقطة الصفر فى البداية فان ذلك فى حقيقة الامر ليس الا تحديدا جزافيا ونسبيا ، فالشهور التى يقضيها الجنين داخل رحم أمه ليست فترة عزلة عن العالم الخارجى كلية بل ان المرحلة التى تسبق تكوين البويضـــة الملقحة من خليتى الذكر والانثى هى أيضا ليست فى معزل عن العالم الخارجى فالمشاهدات العلمية والاكلينيكية بها ما يؤكد هذه الحقيقة ، اذ أن هنـــاك ما يشير الى أن صحة الام النفسية والجسمية تؤثر على تكوين الجنين بل ان المؤثرات التى تؤثر على الام (كالموسيقى مثلا) توجد عند الجنين ·

ولو تأملنا رسم الدوائر المتداخلة (شكل ٣ ــ ١) لوجدنا ان هـــذه الحقيقة ممثلة فى التقاء جميع الدوائر عند نقطة الصفر (فهى التى تجمع كل الدوائر ، وان أى حركة نمو متجهة من الصفر الى اعلى تنقلنـا مباشرة الى المرحلة (الدائرة) الاولى فى نفس الوقت الذى يكون هنـــاك وجـــود للدوائر الاخرى جميعها على الجانبين (أى فى الاتجاه الافقى) ·· أى أن وجود الانسان فى هذه المرحلة لا يعنى انه فى معزل عن بقية المراحل ولكن يعنى ان وجود المراحل الاخرى ثانوى ومحـــدود بينما المرحلة الغالبة هى المرحلة التى يعيشها فى هذه الحقبة الزمنية · وتستمر غلبة هـــذه المرحلة حتى تكتمل وتتم (باكتمال الدائرة) فينتقل الانسان الى المرحلة (الدائرة) الثانية التى تكون لها الغلبة فى ذلك الحين بينما المرحلة الاولى اخذت مكانها الثانوى بان اصـــبحت محتواة فى داخل الدائرة الثانية والمراحل التالية مازالت تحتل اماكنها الثانوية على كلا الجانبين (افقيا) ، وهكذا مع بقيـة المراحل ·

ان هذا التصور يجعلنا نرى كيف ان المراحل المختلفة فى عمر الانسان متداخلة ونسبية وليست فى عزلة عن بعضها البعض ·

المرحلة الاولى ، الامان ــ أطلب تأخذ ، اسأل تعلم :

قد تكون لحظة الميلاد هى نقطة البداية لهذه المرحلة الا اننا نستطيع ان نعتبر انها استمرار لما قبلها ، فمازال الانسان وان كان يقضى شـــهورا داخل رحم أمه الا أنه عند خروجه لا يكون جاهزا للوجود الذاتى المســـتقل عن الراشدين ويستمر نموه سنوات بعد ذلك ونستطيع ان نقول ان ما يحتاجه فى الفترة الاولى بعد خروجه من الرحم يكاد يكون اســـتمرارا لما كان يحتاجه

داخل الرحم ، فهو وان كان قد بدأ فى تلقى الهواء والماء والغذاء من فمه بدلا من الحبل السرى الا انه يعتمد اعتمادا شـبه كلى على أمه لتوفير تلك الاحتياجات بدون جهد يذكر منه ، ولا نستطيع ان نتصور كيف يمكن ان يحيا الطفل بدون تلك الرعاية فاذا كان الطفل بحكم تكوينه البيولوجى فى هذه المرحلة غير قادر على تغذية نفسه وحمايتها فانه لذلك فى أشد الحاجة الى ان يطمئن الى ان هناك آخر سوف يوفر له الاحتياجات دون تأخير يذكر أى أن يطلب فيأخذ ، فالصراع النفسى اذن يدور حول الاحساس بالامان والثقة الاساسية فى ان ما يحتاجه سوف يصله وانه يستطيع ان يعتمد على وجود ثابت لمن يلبى له احتياجاته ، وانه يعرف ذلك معرفة اليقين والسؤال عنده لا يحتمل الشك ٠

ولهذا فان المجتمع يخلق الكيانات التى تلبى له هذه الاحتياجات بادئا بالأم التى تكون بالنسبة للطفل ممثلا أول للبيئة الاجتماعية والمادية على السواء ، فخروجه من الرحم ينقله الى وضع متشابه ولكن احضان أمه التى توفر له الدفء والغذاء والراحة والحركة كما أنها تعدله أول مجال لتكوين علاقة بآخر يستطيع من خلالها أن يرسم حدوده ٠

ان وجود الأم الثابت المتكرر يعطيه الاحساس بالثقة الأساسية والأمان فالمشاعر الطيبة المطمئنة التى ترتبط بهذا الوجود ترتبط بمشاعر داخلية بأن العالم الخارجى بخير وأن هناك ثقة وأمانا ٠ ان الامومة التى يحتاج اليها الطفل فى هذه المرحلة لاتتطلب الكثير من الام فقط الحد الادنى من الرعاية والدفء وتوفير الاحتياجات الاساسية بواسطتها أو بواسطة من ينوب عنها ٠ (اذ أن المعتقد أنه لايصل بعد الى القدرة على التفرقة بين الاشخاص بعينهم حتى الشهر الثامن وما يحتاجه أساسا هو عملية الامومة اكثر منها أم بالذات الا أن هناك تجارب حديثة تشير الى أهمية خبرة الساعات الاولى فى تأكيد علاقة الثقة المتبادلة بين الام والطفل فان وجود الام بالذات ضرورى لايجاد عنصر ثابت حتى يتمكن الطفل فيما بعد من التعرف عليها دون غيرها علاوة على انه ينمى فى الام قوة ارتباطها هى الاخرى بالطفل ٠ فالمطلوب ليس كثيرا ويمكن وصفه بدرجة من الامومة المعقولة أو مايشير اليه وينيكوت Winnicott good - enough mothe ring

الا أن الأم لكى تعطى للطفل هذه الدرجة من الثقة والأمان والاستقرار يجب أن تكون هى الأخرى قد أخذته فى طفولتها ، علاوة على حصولها عليه بشكل آخر فى فترة الأمومة اذ ان فاقد الشىء لايعطيه وهنا يوفر لها المجتمع البنيان اللازم الذى يوفر لها هذا الاحتياج بادئا بالزوج الذى يكون بالنسبة لزوجته العلاقة الثابتة المتكررة التى يمكنها ان تعتمد على وجوده ٠ فارتباطهما فى السراء والضراء يجعل العواصف التى تحدث بينهما مجرد اهتزازات داخل اطار ثابت ومستقر وكلما تحمل كيان الزواج البقاء رغم الاهتزازات كلما زادت الثقة ورسخ الشعور بالامان لدى الطرفين وبالتالى لدى الطفل وكثيرا ماتكون تلك الاهتزازات مجرد اختبارات لثبات الكيان الزواجى ٠

ولكن الزوج مثل الام يحتاج بالتالى الى مصدر عطاء فهو عبارة عن حلقة في سلسلة طويلة لأنه هو أيضا نتاج أسرة وأم وتربية أعطته بدرجـــــات متفاوته هذا الشعور الراسخ بالثقة والامان علاوة على أنه يعيش فى مجتمع قـد يوفر له استمرار هذا الشعور ، فهو لكى يوفر الاحتياجات الاساسية لاسرته بادئا بالاحتياجات المادية ثم الاحتياجات العاطفية والوجدانية ، لابد وأن يكون هو الآخر حاصلا على تلك الاشياء فى حاضره اسوة بماضية ٠ وهنا يوفـــر له المجتمع الاستقرار فيجعل العمل ممكنا لافراده بل حقا لهم ، واذا لم يتوفـــر العمل فهو يحصل على بديل له فى صورة تأمينات اجتماعية ومعاشات وغيرذلك من مصادر للطمانينة وعلى مستوى آخر فان التقاليد الموجودة فى المجتمع تستطيع ان تكمل تلك الانظمة فالاسرة الممتدة حيث يرعى الاقارب بعضهم وخاصة فى الظروف الصعبة مثل المرض والشيخوخة تتوفر فى الريف حيث لاتوجد الانظمة المحكمة للتأمينات والمعاشات ٠

واذا انتقلنا الى مستوى أعم فان المجتمع يوفر أيضا بواسطة قوانينه التى تعطى للفردحدا أدنى من الطمأنينة من حيث انه لن يسمح بالاعتداء على احتياجاته الاساسية سواء بالعنف المباشر او المقنع ، فالمجتمع يحد من الجريمة بواسطة القوة المنظمة والمقننة (الشرطة والقضاء) والمفروض انه فى نفس الوقت يحرص على الاتتعدى هذه القوة حدودها فتصبح هى نفسها اداة للقهر والظلم ٠ وهذا ينطبق على القوة البوليسية والقضائية التى تحمى المجتمع من الداخل، وينطبق أيضا على قوة الجيش والدبلوماسية التى تحميه من الخارج ٠ وطالما تحقـــق تلك القوة النجاح فى تأدية وظيفتها فهى قلما تتحول الى الداخل بالاعتداء على طمأنينة أفراد مجتمعها وسلبها الشعور بالامان بل انها على العكس توفر لهم الامان من العدوان الخارجى أو التمرد الداخلى ٠

نستطيع ان نجد مظاهر هذه المرحلة فى التطور التاريخى للمجتمعـــات. فالمجتمع القبلى البدائى لاتمييز فيه للفرد اذ أن الفرد لايعنى ذاته كوحدة مستقلة عن القبيلة بل ان وجوده ذاته يعتمد على رضاء القبيلة مجسدا فى ارادة زعيمها لدرجة أنه اذا غضب الزعيم على فرد أمره بالموت فيطيع الفرد الامر حتى وان كان يتلقاه خارج مجال الوسائل الحسية المعروفة (فقد يكون على بعد أميال وسط الغابة) وينفذ الامر بان يجلس ويتوقف قلبه وتسمى هذه الظاهرة ٠
Voodoo death

وبمقياس آخر نستطيع أن ننظر الى مرحلة استقرار الاستعمار فى وقت ماحيث تبدو الدولة الاضعف والمستعمرة راضية عن الدولة المسيطرة بل مقدسة لها ومطيعة لها ولأمرها ٠

واذا انتقلنا خطوة اخرى فسوف نجد المجتمعات قد خلقت كيانات آخرى توفر لافرادها من خلالها هذا الشعور بالثقة ، فالاديان تشترك فى وجود هذا المصدر الاول الموجود الذى يرعى خلقه ويوفر لهم الرزق والحياة وهو الخالق فليس هناك دين يخلو من مفهوم يوفر للافراد هذا الاحساس ٠ فالله فى جميع الاديان مهما اختلف تصورها له ، هو الملجأ النهائى الذى يلجأ اليه الفرد فى

احلك لحظاته ويستنجد به وقت حاجته وكلما كان الفرد مشبعا فى طفولته وواثقا بان هناك ثقة وأمانا كلما كان ايمانه بان الخالق سوف يوفر له هذا الشعور . وكلما ازدام احساسه بالثقة أن الخالق يرعاه ويستجيب له كلما استطاع توفير هذه الرعاية لابنائه فينشأون هم بالتالى ولديهم الاساس الذى يبنى عليه الايمان فيما بعد .

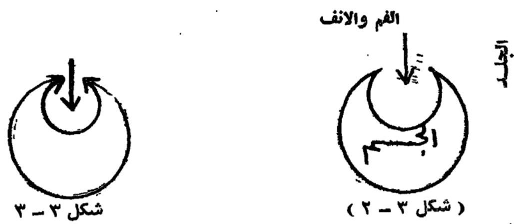
ان التحدى الجوهرى والصراع الاساسى فى هذه المرحلة من عمر الانسان تتلخص فى امكانية ايجاد الثقة والامان الاساسيين فى مقابل الشك ، ويسمى اريكسون ذلك التحدى أو الصراع الجوهرى nuclear conflict

oral - respiratory - sensory

وتستمر هذه المرحلة لمدة السنة الاولى من عمر الطفل وتقابل عند فرويد المرحلة الفيمة oval الا أن اريكسون يرى مثل فرويد الوظيفة الفمية ليست مقصورة على الفم وحده وان كان هو العضو الغالب ، ولكنها تشمل الانف والوجه والجلد بصفة عامة ويسميها المرحلة الفميه الحسية

oral - respiratovy - sensory

ويرمز اليها بشكل دائرة تمثل الجسم بخط ثقيل مؤكدا اهمية الوظيفة الحسية فى الجلد مع وجود فتحة أعلى الدائرة تمثل الفم والأنف .



(شكل ٣ ـ ٢)

شكل ٣ ـ ٣

كما أن هذه المرحلة تنقسم الى قسمين ، الاولى قبل ظهور الاسنان اى أول ستة أشهر وهى تتميز بأن التلقى هو أساس العلاقة مع الآخر وهو تلقى سلبى من جانب الطفل فالغذاء سائل ولايحتاج الى مضغ او عض . أما بعد ظهور الاسنان فأن الآلام التى تحدث نتيجة لبزوغ الاسنان تجعل الطفل يعض على الأشياء بآدئا بثدى أمه التى قد تستجيب بأن تسحبه منه اذا تألمت مما يزيد احساسه بعدم الثقة الا أن ادخال الأطعمة الصلبة فى هذه المرحلة يعطية فرصة للعض ويجعل التحول من الرضاعة الى الاكل عملية انتقال خلال هذه العلاقة الآمنة من وسيلة الى اخرى وبهذا ينقل الطفل فى هذه المرحلة من عملية التلقى السلبى الى عملية آكثر ايجابية فهو يقبض على الاشياء بايجابيته ويأخذ عفوا ما كان يتلقاه سلبيا . وتعم هذه الصيغة mode وظائفة الجسميه المختلفة فيداه مثلا بعد أنكانتا تقبضان على مايوضع فيهما فقطبواسطة الفعلالمنعكس القابض grasp reflex أصبحت أكثر ايجابية ، وعينه التى كانت

تنظر فقط الى ما يأتى فى دائرة نظرها أصبحت تتتبع المواضيع بايجابية وكذلك أذنه والاصوات التى يسمعها ٠

ويرمز أريكسون الى هذه المرحلة بدائرة مشابهةمضافا اليها سهمان عند الفم يمثلان عملية الايجابية فى القبض على الاشياء بواسطة الفم (شكل ٣ ــ ٣).

وهاتان الوسيلتان تقابلان فى العمليات النفسية وظيفة الادماج
incorporation
الذى يتحول من العمل السلبى الى الايجابى كما ان الوصف لوسيلة التعامل مع المجتمع التىيسميها اريكسون الوسيلة modality ويفشل فى استخدام الكلمات العامة لها ، وهى فى الجزء الاول من هذه المرحلة التلقى to get وفى الثانى الاخذ to take وهاتان المرحلتان هما المرحلتان الفميتان اللتان يشار اليهما بالمرحلة الفمية السلبية passive oral والمرحلة الفمية الايجابية أو المعارضة oral receptive وهناك مظاهر لبقايا هذه المرحلة بعد انتهائها سواء كان ذلك فى صورة بقايا معيقة للتكيف اى فى صورة اضطرابات وامراض نفسية او بقايا تساعد على التكيف فى صورة سمات شخصية وخاصة تلك السمات التى تناسب وظائف موجودة فى المجتمع ٠

اذا بدأنا بالمظاهر السوية فسوف نجد ان هذا الذى تعلم الاخذ والتلقى واشبع بهما هو الذى يستطيع فيما بعد أن يقوم باداء هذه الوظائف لغيره فهو الذى يستطيع العطاء دون ان يطالب ويستطيع ان يترك الاشياء اذا أخذت منه دون أن يشعر أنه استنفذ أو استغل اذ انه مسلح بثقة فى الآخرين وكرم فى العطاء يجعله مصدرا مطمئنا للحب ٠ وعلاقاته بالآخرين تتسم بالثقة والدفء والاقتراب المباشر الذى لايحتاج الى بدائل من الاطارات الخارجية مثل قوة القانون أو المال ، وهو يجد الامان فى وجوده الاجتماعى ويؤمن بقيمته المجتمع الذى يحيا فيه ولا يحتاج الى أن يفرض نفسه عليه بأساليب القوة ٠ أما علاقاته باللانهائى فهو ينظر الى الكون ككيان متناسق متجانس ويرى نفسه منسجما معه يسبح وسطه دون خوف من عقاب أو بحث عن جزاء ولكن من واقع طمأنينة داخلية ٠

ان مثل هذا الشخص هو الذى يستطيع أن يتجاوز القيم السائدة ويبحث عن قيم تتعالى على الاحتياجات الفورية والدنيوية وتسمو الى حالة من الطمانينة والامان قلما توجد على أرض ولكنها كانت على مر الازل مصدرا للامل للانسان تساعدة على تحمل بؤسه فى الواقع ٠

أما اذا كان الفرد ينقصه الاشباع فى هذه المرحلة ــ ويمكننا أن نقول أن هذه هى القاعدة والاختلاف ليس الا فى درجة الحرمان او اذا كان الاشباع فى هذه المرحلة قد زاد عن حده وأصبح ادمانا وأغرى الطفل بالتثبيت على هذه المرحلة وعدم تجاوزها للمرحلة التالية) وهنا ايضا نستطيع أن نقول أنها قاعدة واختلاف فى درجة الاشباع) فان السمات الشخصية التى تنتج عن كلتا الحالتين ــ النقص والزيادة فى الاشباع ــ تؤدى الى درجات متفاوته من الاضطراب

أو التوتر والذى كثيرا مايكون اذا وظيفة تكيفية اجتماعية ولكنه يصل أحيانا
يسهم مائل diagonal الى اليمين) فان الذى يتميز به هو محاولة الابقاء على
لدرجة اعاقة التكيف وقد يصل فى الحالات الشديدة الى درجة المرض الواضح
الذى يحتاج الى رعاية .

فاذا كان الانحراف عن النمو فى اتجاه محاولة الابقاء على الماضى (نمثله بسهم مائل diagonal فان الذى يتميز به هو محاولة الابقاء على وضع الثقة والأمان كما كان فى الماضى خوفا من محاولات التعليل على المستويات الأخرى وتجنبا لها فهو يعطى ويحب كبديل لفرض سيطرته او أخذ المبادرة وغير ذلك ، وليس كتجاوز التلك المراحل.ولذلك نجده يلجأ الى سلاح الحب فى موقف يحتاج موضوعيا الى القوة او العنف ويفترض الثقه فى موقف يحتاج الى الحرص أو الشك مما يعيق تكيفه ويضعه فى صراع مع البيئة . واذا زادت درجة الشك عنده فانه يتحول الى انسان منطو على نفسه اذ أن العالم الخارجى لا يثق فيه ولا يعتمد عليه فيلجأ الى ذاته ، وهو ما نجده بدرجات متفاوتة فى الشخصيات المعتمدة وغير الناضجة والشخصية الهستيرية . ثم فى الشخصية الاكتئابية والشخصية شبه الفصاميه ويصل الى القصاه فى مظاهر الفصام العميقه حيث ينسحب المريض كلية من العالم الخارجى . ان الاضطراب فى الثقة هنا يكون أحد مظاهر هذه الاضطرابات وليس بالضرورة سببا لها .

أما اذا كان الانحراف عن النمو يأخذ صورة الاستعجال فى تخطى مواجهة انجاز الحصول على الثقة والأمان أى التمسك بالمستقبل قبل الاشباع من المرحلة المعنية فاننا نجد انجازات المستقبل تأخذ صورة المبالغة التى تخفى وراءها الاحتياج الى الثقة وتصبح هى ذاتها بديلا عن الحصول على الثقة والأمان فالفرد هنا يستخدم السلطة أو المبالغة فى تأكيد الذات أو المبادرة أو غير ذلك من الانجازات التالية للمرحلة الأولى كمجرد بديل للثقة والأمان . وبدلا من أن يطلب الحب والقبول مباشرة ، فهو يلجأ الى القوة مثلا للحصول على ذلك ، بينما ينكر حاجته الى الحب وهو يبدو قاسيا أو عنيفا ولكنه فى الحقيقة يمارس رد فعل لاحتياجه العميق للثقة والطمأنينة . واذا زاد الاضطراب فانه يتسم بالصفات الشكاكة البارانوية فهو يعتقد أن العالم لايثق به ولكنه لاينسحب أو يرضخ بل يأخذ ما يريد عنوة ، الا أنه بطبيعة الحال لايستجيب العالم لمثل هذه الرغبات بالطريقة التى يتمناها ولذا تزيد حالته سوءا فيتحول الى الانطواء على نفسه فى عداء سلبى للعالم الخارجى ونجد مظاهر هذه المرحلة اذن فى حالات الفصام البارانوى وان كان لايمثل بالضرورة الاضطراب الرئيسى أو الجوهرى أو المسبب لهذه الحالة .

المرحلة الثانية الاستقلال ـ أنا أرفض فأنا موجود :

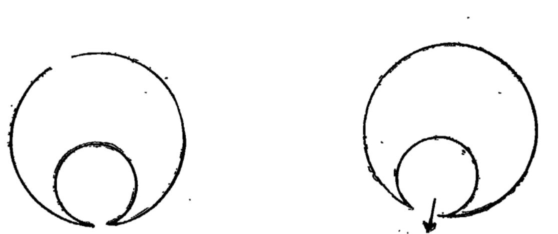
اذا مامرت المرحلة الاولى بسلام واطمأن الطفل ان العالم بخير وانه لن يخذل أو يترك أو يهجر فانه يستطيع ان ينتقل الى المرحلة التالية فى نموه فبعد أن ترك الرحم وانفصل عن أمه فانه استمرارا لهذا الانفصال يتدرج فى التخلى عن اعتماديته شبه الكاملة على أمه خاصة وان نموه الجسدى فى نهاية هذه السنة الاولى يسمح له

بأن يغـــذى نفســـــه دون ثدى أمه أو يدها كمـــا أنه يســـــتطيع ان يقف على رجلية ويتحكم فى عضلاته بما فيها العضلات العاصرة غير المخططة والتى تتحكم فى فتحات الجسد (الشرج والمثانة) كما انه يستطيع ان يمارس التكلم. كل هذا يعطيه محورا للانجاز فى مجال الاستقلال عن جسد أمه رغم انه مازال يحتاج اليها لمساندته عند اللزوم فقط أى يحتاجها خلفه كقوةاحتياطية يطمئن اليها فهو يتقدم الى الامام ولكنه يعى ان وراءه من ينظر اليه فاذا نجح فى انجاز مايسعى اليه استمر زاهيا بشعوره بالاستقلال ، وليس خلفه من يشده الى الخلف وان كان ينظره بل انه يتركه ويشجعه على التقدم ، واذا فشـــل فانه يشعر بالخجل والشك فى أن خلفه من يترقبه ليحاسبه أو يؤنبه على فشـله . انه يعى ذاته ككيان منفصل يريد ان يستقل عن كيان أمه ولكنه ينجـذب الى الاعتماد عليها كما كان يحدث فى الماضى ، كما أن وعيه بجسده وقدرته عـلى التحكم فى عضلاته يجعله ثنائى المشاعر بين التمسك بالاشياء والتشبث بهـا وبين تركها وقذفها وهو فى ثنائيته هذه يطلب من أمه ان تتركه ينمو ويستقل وفى نفس الوقت يطلب منها أن تتحمله اذا ما فشل . فهو يريد أن يقف على قدميه ولكنه يطلب المساندة اذا وقع ، ويريد التكلم ولكن يطلب ان تفهمه أمه اذا لم يستطع التعبير ، ويريد التحكم فى فتحات جسمه ولكنه يريد أن يستمر فى الاستمتاع بعملية الاخراج دون توبيخ أو اهانة .

ووعيه بذاته ككيان مستقل يبدأ فى هـــذه المرحلة على خـلاف المرحلة السابقة حيث لايفرق الطفل بين ذاته والموضوع . الا انه لكى يؤكد ذاته لابد له أن ينفى ما هو ليس ذاته ومن هنا تتميز هذه المرحلة بصراع الارادة بين الطفل وأمه ويكون محور الصراع هو تأكيد الارادة بعد ان كان قبل ذلك يدور حول مجرد الوجود ، اى ان الطفل الذى وجد الاجابة على سؤاله : هل أكون أو لا أكون ؟ (فى أمان وغياب المخاطر على وجودى) أصبح الان يسأل : هل أريد أو لا أريد ؟ وهل استطيع تأكيد ارادتى وذاتى فى مقابل الاخر ؟ (دون أن أفقد قاعدة الامان التى حصلت عليها) فاذا أكد ذاته فانه قد حقق انجاز هذه المرحلة وهو الاستقلال واذا فشل فانه يشعر بالخجل والشك فى نفسه ويسمى اريكسون هذا الصراع الاستقلال فى مقابل الخجل والشـــك .
autonomy v/s shame and doubt

وبالعودة الى الاسس البيولوجية لهذه المرحلة فسوف نجـــد أن هناك انتقالا من منطقة الفم الى الخارج (أى فتحات الشرج والمثانة) وهى تقابل التطور البيولوجى للكائنات الحية التى تمر من مرحلة التلقى والاخـــراج من فتحة واحدة الى تخصيص فتحة للتلقى (الفم البدائى) stoma » وفتحة للاخراج (المبرز أو الـــ Cloaca) كما انها وظيفيا تمثل مرحلة الانتقال من الاخذ والاحتواء المتبادل مـــع الترك والاندماج الى مرحلة التحكم فى المنـــع والعطاء (بواسطة العضـــــلات غير المشرطة) واذا كانت هـــذه النقلة هى احدى مظاهر النمو فى هذه المرحلة بالاضافة الى التحكم فى العضلات بصفة عامة وخاصة العضلات المتصلة بالوقوف والمشى والكلام فان التركيز الحضارى على النظافة والنظام قد جعلا معركة الاستقلال تدور حـــول فتحـــة الشرج بالاخص مما جعل فرويد يسمى هذه المرحلة بالمرحلة الشرجية anal واذا كانت المعركة تتسم بالعنف والعدوان وغير ذلك من مظاهر تأكيد الذات.

والتحكم فيها فان صفة السادية تكاد تكون لازمة لهــذه المرحلة التى تعــرف أحيانا بالمرحلة السادية الشرجية anal - sadistic والوسيلة التى تتميز بها هذه المرحلة تتصل بوظيفة التحكم العضلى ، فالعضلات تمسك أو تتقلص وترتخى ، وأوضح مظاهرها فى عملية التحكم فى مخارج الجسم فيمـــا يختص بالتبول والتبرز ، فالطفل أصبح فى مقدوره أن يمنع اخراجاته أو يتركهـــا أو يقذف بها خارج جسده • ويسمى اريكسون هاتين الوســـيلتين : التخلص elimination والاستبقاء retention ويرمز اليهما برسم الجسم كدائرة وبه فتحة فى اسفله تمثل المخارج وعليها خط يمثل الاستبقاء أو سهم خارج منها يمثل الاخراج ، وترسم الدائرتان فى نفس المستوى لابراز ان هاتين الوسيلتين المتضادتين توجدان فى نفس المرحلة ولكن بالتبادل وهو اذ يكتسب هذه القدرات من واقع نموه البيولوجى الذى يؤهله لهذا التحكم فى مضلاته فهو يتعلم على مستوى علاقاته بالاخرين وسيلة التعامل المقابلة وهى القدرة على الترك letting go والقدرة على التشبث holding on



وهنا يأتى دور المجتمع فى تسهيل هذا الانجاز بالنسبة للطفل بادئا بالام، سوف نجد أن الام التى حصلت على درجة من الاستقلال فى طفولتها تستطيع أن تسمح للطفل ان يمارس استقلاله دون خوف من تركه لها فهى تستطيع ان تتركه فى نفس الوقت الذى تتشبث به وتجد المقابل لذلك فىعلاقاتها الحاضرة بزوجها الذى تتشبثبه بدلا من طفلها مع الاختلاف فى حالة الزوج لأنه أقدر من الطفل على الاستقلال عنها دون خوف من فقدانه ، فاذا كانت علاقتها بزوجها نتسم بالاعتمادية الشديدة فانها بدافع من الخوف من ترك زوجها لها سوف تتجه الى طفلها وتتمسك بتعلقه بها واعتماديته عليها وبالتالى ســوف تعيق استقلاله • واذا أوسعنا الدائرة قليلا فســوف نجد أن الزوج الذى يتمتــع بدرجة من الاستقلال والاحترام لكيانه فى المجال الاجتماعى الاوسع ســوف يكون أقدر على السماح لزوجته بدرجة من الاســـتقلال والعكس صحيح فى حالة عمل المرأة وممارستها لعلاقتها مع المجتمع مباشرة دون أن يكون الزوج هو الحلقة الوحيدة أو الرئيسية بينها وبين المجتمع وقياســا عـلى ذلك فان علاقة الطفل بالبيئة الاجتماعية التى توجد نوافذ وحلقات اتصال اخرى غـير الام ، كلاهما ينمى القدرة على الاستقلال •

والمجتمع الاعم يوفر للاسرة ولافرادها هذا الشعور بالاستقلال فعلى مستوى الاسره مازالت المجتمعات تعتبرها الوحدة الاجتماعية الصغرى التى تكون المجتمع وتمنحها درجة من الاستقلال والحكم الذاتى رغم وجود الاتجاه نحو احلال المجتمع الاوسع محل الاسرة فى كثير من وظائفها (قد تصل الى درجة محو الاسرة كما يحدث فى الكوميونات) • وكذلك يكفل المجتمع درجات من الاستقلال للافراد تتراوح بين النظام العسكرى الكلاسيكى كحد ادنى من الاستقلال للافراد داخل المجتمع (العسكرى) وبين نظم اللجان والجمعيات والمجالس وبينها نجد النظم والروتين والبيروقراطية بدرجات متفاوته وكلما كان المجتمع يسمح بدرجة من الحرية لافراده كلما سمح الافراد بالتالى بذلك الاستقلال لافراد اسرهم •

واذا كان مجتمع الثقة والامان يعطى التأمينات التى تعطى الطمأنينة على مستوى تلبية الاحتياجات العضوية الاساسية للافراد فان مجتمع الاستقلال يرسم الحدود ويحدد النظم التى تسمح لكل فرد أن يعرف حدوده تجنبا للاحتكاك والصراع • فهو المجتمع الذى يسن القوانين والنظم والبيروقراطية ويمارس التعليمات ويمنع ويمنح . وكذلك نجد فى بعض مظاهر الاديان تعبيرا عن هذه المرحلة فكل الاديان لها طقوسها وتعاليمها التى تصل الى درجة الانفصال عن المشاعر الحقيقيه او الايمان ، ووظيفتها ان تخلق نوعا من النظام الخارجى الذى يجمع افراد الدين الواحد بغض النظر عن عمق ايمانهم ، فالناس يذهبون الى الجوامع والكنائس بالانتماء المتبادل دون المساس بالاستقلال الذاتى أو التعرض لنوعية ايمانهم فما دام كل فرد يمارس الشعائر الخارجية فليس لفرد آخر حق التدخل فى جوهر ايمانه • كما ان التعاليم بصفة عامة تخلق نوعا من الطمأنينة وخاصة وان هناك أفعال لن يسمح بها بغض النظر عن النيات فقد يطمع أحد فى اموال اخر ولكن مادام لايعتدى عليه فلا حساب لاحد على نوايا الطامع والحكم فقط على اعماله • هذه التعليمات الدينية تضع حدا ادنى للسلوك فليس لاحد الحق فى محاسبة صاحبه بعد ذلك على أساس النيات فهذا هو الجانب الاجتماعى من الدين يحاسب على الاعمال بغض النظر عن النيات •

أما فى تاريخ المجتمعات فاننا نجد هذه المرحلة تتمثل فى تمرد أفراد القبيلة على القبيلة الام وانشقاقهم عليها وانشاء قبائل جديدة وعلى مستوى الدول نجد ان الدول المستعمرة وهى تمارس كفاحها من أجل الاستقلال لمجرد اثبات ارادتها تتعارك مع الدول المستعمرة وتنفى وجودها رغم حقيقة الرباط بينهما (الامر الذى تشاهد مظاهره فى استمرار العلاقات بين البلدين والتى قد تمثل بعض بقايا التبعية الاقتصادية والحضارية) بعد انتهاء معركة الاستقلال•

أما بقايا هذه المرحلة بعد انتهائها فهى أيضا تتوقف على درجة الاشباع أو الحرمان التى مرت بها مما يجعلها تأخذ صورا قد تساعد على التكيف والصحة أو صورا قد تعيق التكيف أو تصل الى درجة المرض •

واننا نجد سمات الشخصية المتبقيه من هذه المرحلة التى تعبر عن الصحة فى احساس الفرد باستقلاله وقدرته على الرفض والنفى والمخالفة

وهو ان وافق أو تكيف فانما يفعل ذلك عن قدرة وارادة وليس عن خـوف من اثبات ذاته . كما انه بالمقابل ان رفض او خالف أو نفى فانما يفعل ذلك عن اقتناع ورغبة متكاملة وليس لمجرد العناد لاثبات ذاته .

واذا لم يكن الاكتفاء فى هذه المرحلة صحيا (سواء كان ذلك بالاشباع الزائد أو الحرمان الزائد) فأن الجذب النكوصى الذى ينتج عن ذلك يؤدى الى سمات مرضية فى الشخصية قد تخدم التكيف فى حدود (حسب درجة نضج المجتمع) أو تعيقه . فنجد صفات العناد الواضح حيث ، الفرد يقول « لا » بدافع من الخوف من الخضوع ومبالغة منه فى الرغبة فى الاســتقلال التى تخفى وراءها أحساسا بالتعلق والاعتمادية ، يأخذ الشكل المرضى الا انه فى اطار ظروف زمان ومكان ما قد تخدم التكيف ، فأحيانا يكون العناد خطوة نحو اثبات الذات والاستقلال الا أن المبالغة هنا هى التى تجعل السمات مرضية . فالعناد فى حد ذاته لايخدم التكيف بل يؤدى الى الالم نتيجة تصادم الارادات.

وفى حالات المرض الصريح نجد بقايا هذه المرحلة فى حالات البارانويا والوسواس القهرى وبعض حالات الاكتئاب . فالاول يؤكد ذاته بأن يبقى على الصفات المقبولة فيه بينما يعتقد ان العالم الخارجى هو الشر (انا خير وانت شر) ويتصــارع مع الاخــرين من هــذا المنطلــق بينما الثـانى يعكس الاية فيستدمج الصفات السيئة داخليا بينما يبقى على تماسك العالم الخارجى (أنا شر وانت خير) وفى كلتا الحالتين فان العنصر البارز من بقايا هــذه المرحلة هو هذه التفرقة الحادة بين الداخل والخــارج (أنا والاخــر) مع اضافة صفات قيمية على الجانبين وما هو الا مظهر من مظاهر تأكيد استقلال الذات داخل الفرد نفسه فهو اما خير أو شر ، واما ابيض أو أسود ، وهــو الابقاء على الذات «جيدة» (البارانويا) أو الابقاء على الآخر . جيدا (الاكتئاب)

أما فى حالات الوسواس القهرى فاننا نجد هذا الاصرار على تأكيد حدود الذات داخل الفرد نفسه فهو اما خيرا أو شرا ، واما أبيض أو أسود ، وهو يتأرجح فى ثنائيته بين هذا وذاك ولذا نجد الصراع بين الجانبين على مستوى الشعور ، كما اننا نجده ممثلا فى الخارج وفى الداخل فالوسواس قاس مع نفسه ومع غيره كما اننا نجده ايضا رقيقا مع نفسه ومع غيره .

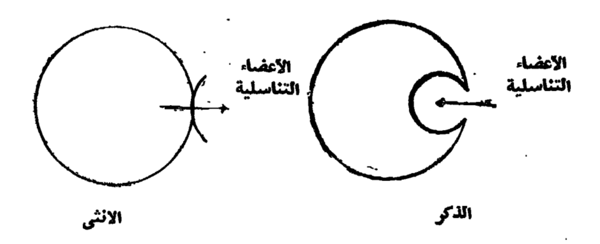
المرحلة الثالثة ، المبادرة ـ الحياة كنز فاملأ جعبتك :

واذا استطاع الطفل تأكيد ذاته ووقف على رجليه واستقل عن ارتباطه الكفلى بأمه فانه ينتقل بعد ذلك الى التحدى التالى وهو يدور حول ما الـذى سوف يفعله بهذا الاستقلال ؟ نستطيع أن ننظر الى هذه المرحلة أيضـا على انها استمرار لعملية الانفصال عن الام فمن ناحية نموه الفسيولوجى فهــو قد أنجز القدرة على التحكم فى عضلاته ويستطيع أن يهتم بما سوف يفعلـه

بهذا التحكم . فبعد الوقوف والمشي ينتقل الى مشكلة ماذا سيفعله بالوقوف والمشي وليس فقط الاكتفاء بالوقوف أو المشي ، فهو يسير الى أماكن أخـــرى ونحو أهداف وفى مسافات متباعدة عن جسد أمه ولذا فهو يســـتخدم قدرته الجديدة لكي يصل الى اماكن ويكتشف العالم الخارجي . ومن ناحية الكلام لم تعد المشكلة محصورة فى : هل ينطق الكلام ام لاينطق ولكن ماذا سيقول بكلامه ؟ ومن ناحية التحكم فى مخارج جسده أى عمليات التبول والتبرز فهو لم يعد يخشى فقدان اجزاء من داخله أى البول والبراز ولـــكنه أصـــبح يهتم بتماسك اجزاء جسده وبنيانه ويستمتع به سليما متكاملا وليس بأجزاء يحتفظ بها داخله ثم يلقيها خارجه (مثل البراز) كما اننا نجده بعد أن أكد انفصاله عن أمه يستطيع ان يعقد المقارنة بين جسده وجسد أمه فهو اما متشابه (فى حالة الانثى) وبالتالى مختلف عن الاب (الذى يدخل فى حياة الطفل ككيـــان آخر منفصل عن الام) أو مختلف عن الاب (فى حالة الذكر) ومتشابهة مع سيبه وهنا يعى الطفل الفروق بين الجنسين بعد أن كان شغله أن يعى الفرق بـــين جسده وجسد أمه اى بين الذات والموضوع كثنائى أساسى يسبق ثنائيـــة الذكورة والانوثة ولعل لهذا الاهتمام بالفروق بين الجنسين فى مجتمع يخشى الانسياق وراء اللذة الجنسية على حساب التماسك الاجتماعى والعمل يجعل الاسرة تخشى هذا الوعى الجديد فى الطفل وما قد يترتب عليه اذا ما تركـــه يستكشف جميع ابعاده . ولهذا يعى الطفل أهمية اعضائه التناسلية وبما ان الممنوع مرغوب وتصبح هذه المنطقة من جسده ذات اهمية غالية . وحيث أن الفرق الظاهر بين الجنسين فى هذه المرحلة هـــو القضيب فان فرويد أطلق عليها المرحلة القضيبية phallic ومن جانب آخر فان المجتمـــع رغم خوفه من التعبير الجنسى يضفى قيمة ايجابية على الذكورة وما يصاحبها من صفات الاقتحام والاختراق والسيطرة والعدوانية فأن القضيب (الـــذى يملك بحكم تكوينه العضوى هذه الصـــفات) يصـــبح موقع حسد من جانب الطفلة الانثى التى تتغلب عليها تلك الظاهرة وهى حسد القضيب penis envy كما ان الذكر يقدر فخره بعضوه يخاف عليه من الفقدان فتتغلب عليـــه فى مقابل ذلك ظاهرة قلق الخصاء castration anxiety

الا آن الاتجاهات الفكرية الانثوية Feminism ترفض هذا التحيز لاعطاء القيمة الاعلى للذكورة وترى فيها رد فعـــل من جانب الذكور (الذين يسيطرون على مصادر الفكر والسلطة والمال) وانكارا لما يكمن بداخلهم من حسد عميق لقدرة المراة على الانجاب والاستمرار العضوى من خلال ذريتها وكذلك قدرتها على العطاء الملموس (الرضاعة) والرعاية الجسمية لطفلهـــا ومن هنا نشأت مفاهيم مقابلة لحسد القضيب وهى حسد الرحم womb envy وحسد الثـــدى breast envy وهـــو أعمق وأقـــدم من مرحلة الوعى بالاعضاء الجنسية ولذا فهو يوجد فى الطفل فى سن مبكرة وان كان يأخذ مكانا ابرز لدى الذكور فيما بعد .

ويرمز اريكسون الى غلبة المنطقة التناسلية فى تلك المرحلة برسم سهم مقطوع بجزء من دائرة ومتجه الى الخارج من الجنب فى حالة الذكر أو سهم متجه الى فتحة جانبية فى الداخل فى حالة الانثى وهكذا .



اما الوسيلة الغالبة لهذه المرحلة فهى الاقتحام intrusion فى حالة الذكر والذى يقابلها فى حالة الانثى الاحتواء inclusion واذا كانت الوسيلة بشقيها (الاقتحام والاحتواء) تصف عملية الاعضاء التناسلية من حيث أن القضيب يخترق ويقتحم ويدخل بينما المهبل (والرحم) يستقبل ويحتوى ويتلقى ، الا أن هذه الصفات تنطبق على بقية أعضاء الجسم . فالطفل يتحرك نحو الاشياء ويسعى اليها ويميل الى تفتيتها كما أنه فى حديثه يفرض كلامه على محيطه وهذا يجعله دائما يأخذ المبادرة ويبدو ذكيا خلاقا مكتشفا كثير الاستطلاع مليئا بالحيوية والنشاط والبهجة الامر الذى يجعله كثيرا ما ينسى الفشل ويستمر فى المحاولة وهو فى مبادرته هذه لايمارس ارادته لمجرد تأكيد وجودها ولكنه يمارسها لكى يستمتع بها ويستمتع بأيجابية تفاعله مع البيئة وسيطرته عليها .

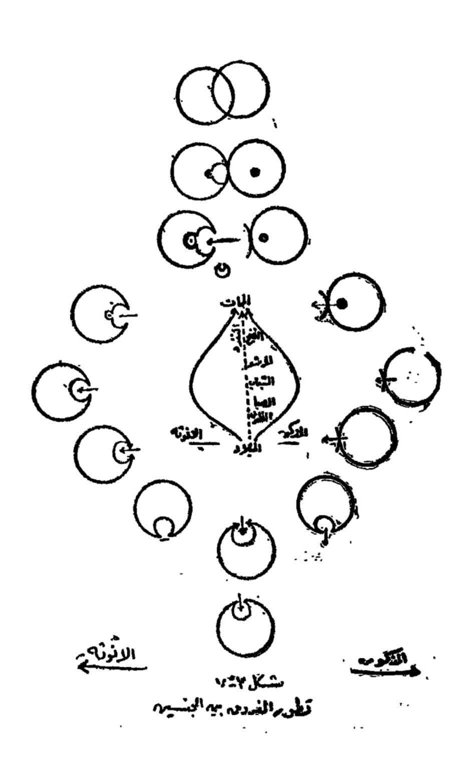
ولعل الوسيلة الاجتماعية هنا يصفها أريكسون بكلمة make اى الفعل بمعنى on the make اى فى حالة ممارسة مستمرة للفعل . وهو يجد الفرق بين الذكر والانثى فى هذه المرحلة فى أن الذكر يستمر بالهجوم والغزو بينما الانثى تفضل القبض متراوحة من الدرجات العدوانية التى تتمثل فى الخطف و « النتش » الى الدرجات الاقل عدوانية التى تتمثل فى الاعتماد على التوقيع فى الشباك بواسطة الدلال والجاذبية .

واذا كان النجاح فى المبادرة يملأ الطفل بالزهو والثقة بالنفس فان المبالغة فى العدوانية التى تنم عن فشل فى هذا الانجاز تخلق فى الطفل شعورا بالذنب . والفرق بين عداونية الطفل فى المرحلة الثانية (مرحلة الاستقلال) والثالثة (مرحلة المبادرة) هو انه فى مرحلة الاستقلال يسعى للاحتفاظ بمركزه الاول بأن يمنع من هو أصغر منه من أخذ محله فهو لتوه خارج من المرحلة الاولى حيث لم يسع وجود طرف ثالث فى حياته ووجد نفسه فى المركز الاول بالنسبة لامه وهو عند خروجه من هذه المرحلة يخاف من أن يحل محله

طرف ثالث أى طفل آخر أصغر منه . أما عدوان المرحلة الثالثة فهو اكثر طموحا نظرا لما يكتشفه الطفل في نفسه من قدرات مبادرة وهو يسعى نحو احتلال مركز من هو أفضل منه وقد يكون شقيقا اكبر ، بل كثيرا مايكون الاب (وهو استمرار طبيعي بالنسبة للطفل الذكر) او الام (فى حالة الطفلة الانثى وتحتاج الى نقلة بعد المرحلة الثانية بأن تفترق عن أمها ثم تنافسها وتتعلق بأبيها) . ان هذه المنافسة هى فى الواقع منافسة طموح ونظرا للفرق الشاسع بين الواقع (صغر حجم الطفل وعدم نضوج اعضائه الجنسية وامكانياته المحدودة من حيث الخبرة والذكاء والقوة) فان الطفل يعوض هذا الفشل فى الواقع بمبالغة انتصاراته فى الخيال والخيال لاحدود له فقد يصل فى عدوانه تجاه ابيه الى تخيلات الاعتداء والقتل مما يثير فيه الشعور بالذنب او الاثم guilt كما انه يسقط هذا العدوان على أبيه بأن يتخيل أن أباه سوف ينتقم منه ويحرمه من هذه الميزة التى تجعله منافسا له وهى وجود القضيب وهنا نتذكر مرة أخرى عقدة الخصاء .

ان هذه الدراما الرهيبة تبقى فى ذاكرة الانسان عصورا فبقدر ما هى مملوءة بالحيوية والبهجة بقدر ما بها من شعور بالذنب يجعل نسيانها أمرا ملحا ، انها تفرض نفسها فيما بعد فى مراحل مختلفة فى صورة صراعات مشابهة وقد تتحول الى أعمال فنيه مثل مسرحية « أوديب ملكا » التى أطلق اسمها على هذه المرحلة الا وهى المرحلة الاوديبية Oedipal stage عند فرويد وهى أيضا تعرف بالمرحلة القضيبية وان كان الوصف السابق يشير الى الطفل الذكر الا ان نفس الشىء ينطبق بالنسبة للطفلة الانثى (واحيانا توصف باسم آخر مصدره اسطورة اليكترا Electra

ويرسم اريكسون هذا التطور المتباين بين الذكر والانثى فى صورة مفترق فى الطريق بعد المرحلة الثانية ويستمر الطفل الذكر فى خط مائل (قطرى) مستقيم فى اتجاه امتداد لوسيلة الاقتحام لتطوير المنطقة وهى منطقة الاعضاء التناسلية التى تصبح مستعدة للجنس الناضج القادر على الانجاب والرسم عند اريكسون يصور هذا الاستمرار على أنه قدم الى الامام بينما يصور تطور الانثى على انه عودة الى الخلف نحو وسيلة شبه فمية وهى الاحتواء وان كان التقدم فى المنطقة ممثلا فى الاتجاه الى أعلى فى الرسم وكذلك فى كون الاعضاء التناسلية تنضج وتصبح قادرة على الانجاب . ولهذا فان التعديل الذى ندخله على هذا التصور يكمن فى ان يكون الاتجاه للامام أو التقدم فى صورة خط راسى الى أعلى بينما تتمثل الذكورة فى خط يميل جانبا (لليمين) والانوثة فى خط يميل الى الجانب الاخر (لليسار) وبالتالى فليس هناك افضلية للذكورة على الانوثة ولكنهما يمثلان الحالتين مكملتين ومختلفتين . وهو اختلاف مرحلى خلال فترة الانجاب ثم يعود الخط المائل يمينا أو يسارا نحو الوسط أى يزداد الذكر انوثة وتزداد الانثى ذكورة (شكل ٣ — ٦) وشكل (٣ — ٧) .



شكل ٢٤٦

تطور الفردية الجنسية

ولعل هذا التعديل فى الرسم يعبر عن تطور قيم المجتمع السائدة وخاصة المجتمع الغربى الصناعى الرأسمالى المتسلط (أو الاشتراكى الذى يشترك معه فى صفة التسلط) حيث هناك أفضلية لما هو مرتبط بالذكورة masculine فى مقابل الانوثة feminine وهو ليس بالضرورة مرتبطا بالجنس كمفهوم عضوى gender (بل هو مفهوم حيادى القيمة) نشير اليه « بالانثوية » femaleness مقابل « الذكرية » maleness الامر الذى يجعله من الممكن أن يكون الشخص مذكرا عضويا ولكنه مؤنث معنويا (وهو معنى أوسع من مجرد كونه مخنثا) وكذلك تستطيع المرأة أن تكون انثى عضويا ولكنها ذكر معنويا (بمعنى أوسع من مجرد الاسترجال) . وعلى هذا فاننا نرى أن الشكل كما رسمه اريكسون يعبر عن أفضلية قيمة مرتبطة بحضارة بعينها فهو بالرسم يعتبر أن التطور بمعنى الذكورة مطابق للتطور بمعنى « الذكرية » ومرادف للتطور للامام كما أنه يعتبر التطور بمعنى الانوثة مطابقا للتطور بمعنى « الانثوية » ومرادفا للنكوص (على الاقل فيما يتعلق بالوسيلة) . واذا اخذنا بمفهوم يونج عن التفرد individuation والذى يمثل سعى كل انسان فى تطوره وتكامله فاننا نجد أن ما يميزه هو هذا الجماع بين الاضداد (الخير والشر ، الشعور واللا شعور ، الانبساطة والانطوائية . الانوثة والذكورة) وبالاشارة الى هذا المفهوم نستطيع أن نقول أن الانسان فى سعيه نحو التكامل يتخطى مرحلة الجنس ويتجاوزها مع ما يصاحبها من فروق جنسية وهو لهذا اذا كان ذكرا مثلا نجده يميل نحو المزيد من الانوثة ونشاهد ذلك فى نضوج الرجال حين يرتبط بالاقلال من السعى وراء الجنس والعدوان فنجده اكثر حكمة ورقة وطيبة ودماثة بل نشاهد المظاهر البيولوجية لهذا الاتجاه فى انخفاض الهرمونات وضمور العضلات وشعر الوجه وفى التغيير فى الصوت . ونجد الظاهرة معكوسة فى المرأة حيث نجدها بمرور السن تزداد ذكورة .

ومن ثم نستطيع أن نستخلص من هذه الظواهر أن الذكورة والأنوثة تمثلان كلتيهما انحرافات مؤقتة ضرورية مرحليا تخدم توزيع الادوار بين الرجل والمرأة فى خدمة الانجاب فى بقاء الاسرة حتى تكتمل فيعود الطرفان للقاء فى الوسط مرة أخرى (شكل ٣ — ٧) .

لعلنا أطلنا فى وصف هذه المرحلة وخاصة الاشارة الى الاسس البيولوجية لها ولكن هذا يرجع الى اهمية هذه المرحلة من عدة نواح فهى تمثل قمة الحركة والحيوية فى الطفولة كما انها تحتوى على أسس التمييز الجنسى بين الذكر والانثى والمفاهيم المرتبطة بذلك . ولعل الكثير من العقد النفسية فى الفرد المتوسط مرجعها الى مدى فشل أو نجاح تخطى هذه المرحلة .

واذا انتقلنا الآن الى تكوين الجهاز النفسى فى هذه المرحلة فاننا نجد الغرائز الجنسية قد عادت لها الغلبة (بعد ما كان العدوان فى المقدمة فى المرحلة السابقة لها والذى وصل الى درجة السادية) . ويرتبط ذلك كما اشرنا

بتحول الاهتمام نحو الاستمتاع بالجسد والحفاظ عليه مكتملا بعد ما كان الخوف من فقدان جزئية منه (البول والبراز) يأخذ الغلبة ٠ (وان كان الخوف من اصابة جزئية يستمر فى هذه المرحلة فى صورة الخوف من الخصاء مع ازدياد الجنس أو المتعة والذى يرتبط بالمنافسة مع الاب (فى حالة الذكر) والام (فى حالة الانثى) فى نفس الوقت الذى يمثل الابوان فيه نموذج التوحيد الذى يرسم للطفل تصورا لذاته عندما يكبر فهما بالتالى يمثلان ضرورة لنموه ومصدرا لحبه ٠ علاوة على أنه بنموه الحركى واستطاعته ترك أمه لمسافات وفترات زمنية تزداد طولا ، فان جهازه النفسى يتطور بحيث يأخذ معه بداخله ممثلا رمزيا لهذا الموضوع الذى تركه على بعد ولمدة طويلة وجهازه العصبى قد تطور ليمكنه من قدر من الذاكرة يجعله فى غنى عن الوجود المادى للموضوع (الأب أو الأم) وهذا الجهاز النفسى هو الانا الاعلى superego والذى ظهرت بوادره فى المراحل السابقة الا أن تبلوره لا يحدث الا فى تلك المرحلة ٠ وهو الجهاز الذى بواسطته يشعر الطفل بالذنب بعد ما كان قاصرا فيما قبل بالشعور بالخجل ٠

ومع احتداد الصراع بين الغرائز والأنا وما يصاحبه من خوف من العقاب (أو خوف من العدوان الذى يسعى الى التخلص من المنافس وهو الأب والأم) يتطور جهاز الانا لكى يخلص الطفل من آلام هذا الصراع ولتتحول طاقته نحو المزيد من الاستطلاع والاستكشاف ونحو مزيد من اكتمال هذا التطور ووصله الى ذروة تصل الى المرحلة التالية وهى مرحلة المثابرة industry ولكن قبل أن ننتقل اليها لابد أن نشير الى بعض الجوانب الاجتماعية والمرضية لهذه المرحلة ٠

فاذا بدأنا بالاسرة فاننا سوف نجد أن الاسرة التى لا تختلط فيها الادوار أو تدور حولها الصراعات بين الذكورة والانوثة تسهل على الطفل التعرف على دوره الجنسى كما أنها بواسطة تماسكها وارتباطها تؤكد للطفل أن المتعة الجنسية لابد لها من ضوابط وتحكمات وليست خاضعة لنزوات اللحظة ولكنها مرتبطة بوجود علاقة مستمرة وملتزمة ومسئولة ، واذا كان هذا الالتزام من جانب الابوين داخليا وخاليا من الكبت والمخاوف فانهما بالتالى لن يبالغا فى الخوف من النزعات الجنسية لدى الطفل ولن يسرعا بكبتها كما انهما بحكم اشباعهما المتبادل لن يحولا رغباتهما الجنسية (مقنعة أو مكشوفة) تجاه الطفل الامر الذى يعيقه عن النمو والاستقلال واختيار رفيقه الملائم ٠

وفى هذه الاسرة ايضا نجد أن حل الصراع الجنسى يسمح للابوين بالمبادرة فى مجالات اخرى للحياة على مستوى المجتمع الاوسع فيستطيعان تحويل طاقتيهما الى الخلق والابداع ، الامر الذى يسهل لهما تكوين علاقات ندية مع الطفل الذى يشاركهما الابداع بل يوحى به اليهما ٠ أو نجد أن الطاقة تتحول نحو المزيد من البحث عن مجالات جديدة للعمل أو الاستثمار أو السعى وراء المال ٠ وهنا نجد العلاقة المتبادلة بين الاسرة (كممثلة للمجتمع) والطفولة ، فالاسرة التى نشأت فى حضارة تؤكد اهمية تأجيل

الغرائز الجنسية هى التى تتماسك وتحد من شهواتها وتحول طاقاتها نحو العمل وتنشىء أبناءها على نفس القيم كما تتعلم من الطفل عمليـــة التأجيل هذه فالطفل فى هذه الاسرة حينما يترك العنان لغرائزه يهدد تماسكها فيملى عليها أن تجعله يكف عن هذا التعبير غير المحكوم ٠

فاذا انتقلنا الى المجتمع الاوسع نجد المبادرة تأخذ صورة الســـعى وراء التوسع والاكتشاف والاستثمار فالقيم تتمركز حول العمل المربح اكثر من العمل المجد المتواصل والمغامرة والحظ أكثر من المثابرة والاجتهاد والاغراء المستمر بقرب النجاة دون الوصول اليه ، فتأجيل الشهوات ممكن فقط فى اطار الوعد بها على مستوى التخيل فالثراء اصـــبح ممكنا ومحتمــــلا ويستطيع أى فرد أن يكون ثريا ٠ ولكن على المستوى الموضوعى فان عدد الاثرياء محدود ولهذا فالامل دائما أكبر من الواقع ، ويستطيع أى فرد أن يحصل على الجنس فالبهرجة على أشدها والملابس ملونة وفاقعة ولكن من حيث الواقع فان الجنس بالتالى يتطلب درجة من الثراء ، والثـــراء ممكن على مستوى التخيل ٠ وعلى مستوى المجتمع نجد هذا الصراع بين الغرائز والأنا الاعلى يأخذ صورة الصراع بين من ليس لديهم ويتمنون وبين من لديهم ويصبحون مصدرا للاغراء فاذا زاد الاغراء وزاد التمنى فى وجـــود الإمكانيات المحدودة زاد الاحباط ووصل الصراع الى ذروته ٠ ولذا نجـــد المجتمع مثله مثل الفرد يحتاج الى تنمية للذات أى القدرات الراشدة العاقلة التى تستطيع الحد من الصراع بين النقيض تجنبا للانفجار بأن تحتـــوى طرفيـــه ٠

ان مجتمع المبادرة المتطرفة يميز المجتمع الرأسمالى الاســـتعمارى الاستغلالى بينما تطوره ينبغى أن يقابل نمو الذات وقدرتها على الحد من حدة الصراع وبالتالى تجنب الانفجار نحو المزيد من التنازلات بين الاطراف المتناقضة كما يحدث فى حالة مجتمعات اوروبا الشمالية ٠

أما عن آثار بقايا هذه المرحلة على تكوين الشخصية فى الصـــحة والمرض فاننا نجد الشخصية السوية تمارس المبـــادرة ودون خـــوف من العدوان وتجازف بالخلق والابداع بشجاعة وتبعد عما هو تقليدى وروتينى اما فى حالة الاضطراب فان هذا الابداع لايكاد يأخذ الا صـــور الانحرافات المختلفة عن التقاليد دون معنى أو هدف أو المبادرة فى العمل والسعى المستمر وراء المزيد من الاستثمار والاكتشاف دون هدف ٠ فنجد الرجل يسعى نحو المزيد من المال دون أن يعرف ماذا يريد أن يفعل به أو يسعى نحو مزيد من الاقتحام والاختراق والانتصار ، والمرأة او المال بالنسبة له ليستا الا وسيلة لاستعراض عضلاته (أو قضيبه) ولا يهتم بالطرق الاخرى الا كمجرد وسيلة ، فهو انسان فى النهاية وفى اعماقه وحيد وخائف ٠

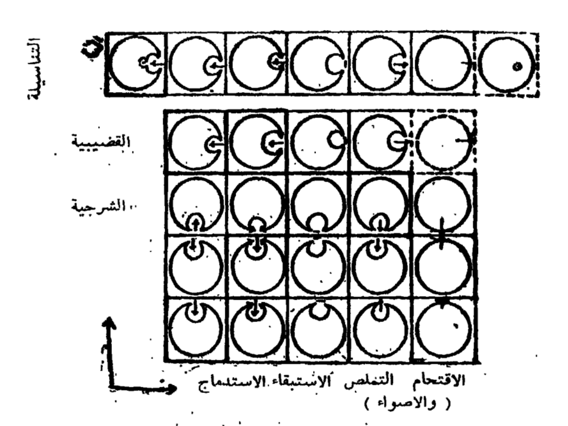
فاذا اقترب احساسه بوحدته وبضعفه زادت الظواهر المرضية فالذى حصل على المال يواجه فراغه ويتساءل عن معنى وجوده ويمر بحـــالات

الاكتئاب المرتبط بالشعور بالاثم فهو يملك كثيرا بينما الناس جياع وعراة، ان ما يملكه أصبح مصدرا للخوف (من فقدانه) ومصدرا للمرض (قد يصاب بارتفاع الضغط أو القرحة فى المعدة أو غير ذلك) والذى يسعى الى مزيد من الجنس نجده أيضا يفقد طعمه أو يصاب بالبرود أو الضعف الجنسى ٠

واذا كان الشعور بالضعف اقرب الى السطح فاننا نجد مظاهر المرض متمثلة فى جانب بمظاهر الخوف من المبادرة مثل الاحساس بالضعف الجنسى والخوف والاكتئاب كما نجده فى الجنس فى سورة البرود أو الضعف الجنسى ونجد فى مقابل ذلك ردود الفعل المعاكسة كأن نجد المبالغة فى العمل أو المبالغة فى الجنس ٠

ولعل الظاهرة المرضية الواضحة المرتبطة باضطرابات هذه المرحلة هى امراض الهستيريا وما يرتبط بها من كبت وانكار واضح للرغبات الجنسية التى تكون جد قريبة من السطح ونجد هذا الارتباط بين الاغراء المستمر دون الاشباع يميز حالات الهستيريا ففى هذه الحالة نجد أن الذى يتباهى بالجنس ويغرى به ولكنه عند نقطة الفعل نجده باردا أو ضعيفا من الداخل ومن هنا تكثر حالات الارتخاء والضعف والبرود الجنسى ٠ ان هذه الصفة تلون الشخصية بسمات تجعلها كثيرة الاستعراض وخب الكلام والتباهى مما يجعلها سطحية بل كاذبة ، وكذا نجد الانفعالات متغلبة وسريعة التحول مرة اخرى على حساب العمق ٠ ونجد الاعراض كثيرا ما تعبر عن هذه الرغبة والخوف منها فالاعراض التحولية كثيرا ما تكون تعبيرا عن الرغبة وعقابا لها فى نفس الوقت ٠ ولعل ارتباط مظاهر الهستيريا بالجسد (الهستيريا التحولية) مرجعه الى هذه المرحلة التى تتميز بهذا الاهتمام بالحفاظ على الجسد متكاملا ومحاولة الاستمتاع به دون الخوف من فقدانه كلية (وان كان الخوف من فقدان جزء منه واضحا) ولعلنا اذا ترجمنا هذا الى سؤال وجودى يقابل سؤال المرحلة الاولى (هل اكون) والمرحلة الثانية (هل أكون آخر) امكننا صياغته فى سؤال :

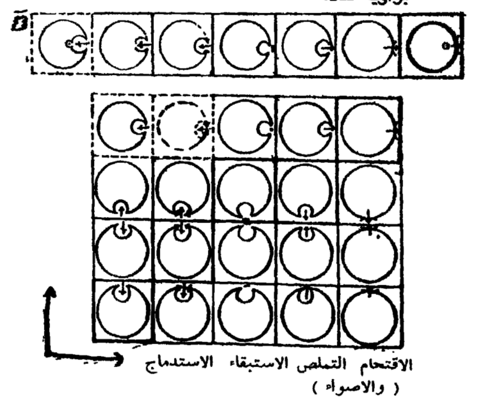
« هل اكون آخر مكتملا » ٠ فصفة الاكتمال هذه تتأسس على مستوى الجسد بأن يشعر الفرد بالثقة والطمانينة نحو جسده وتكامله وعدم فقدان جزء منه أو اصابته وهو يشعر ان جسده مرغوب فيه ٠ ونظر للتمايز بين الجنسين الذى يميز هذه المرحلة فأن الاحساس بتكامل جسده يرتبط بالجاذبية الجنسية والقدرة الجنسية ٠ ونظرا لما يميز هذه المرحلة من قدرة على تكوين علاقة مع آخر مختلف فان هذه الرغبة فى موضوع آخر ترتبط بأن يكون الموضوع مختلف الجنس ٠ وأن يكون تفضيله من قبل هذا الآخر من الجنس المخالف ايضا عنصر التفضيل فهو يفضل عن غيره من الذكور فى حالة الذكر (يفضل عن الابن أو عن الأشقاء) ولذلك فأن الغيرة فى هذه المرحلة تحل محل الحسد ٠



شكل ٢ ـ التطور النفسي الجنسي عند اريكسون

أعلى : فى الذكر ـ التطور فى المراحل = تطور فى المناطق الجسمية (الفم ثم الشرج ثم الاعضاء التناسلية) وتطور فى الوسـائل فى اتجاه قطرى ٠

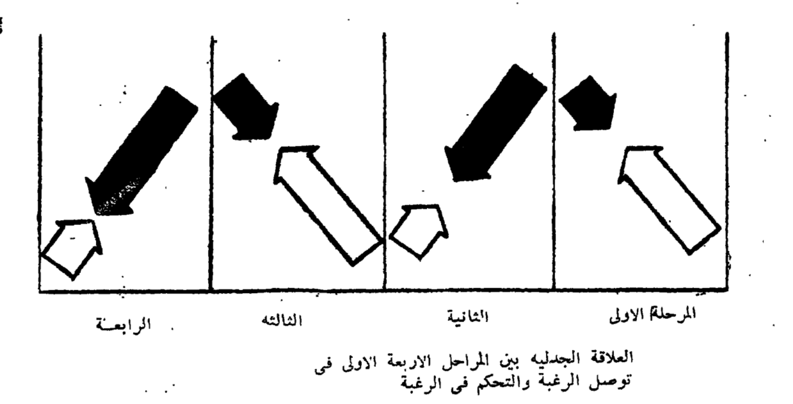
اسفل : فى الانثى ـ التطور فى المراحل = تطور فى المناطق الجسمية فتطور ثم نكوص (الاحتواء) فى الوسائل فى شكل خط قطرى ينعكس بزاوية حادة ٠



المرحلة الرابعة ، المثابرة ـ من الجنة الى أرض الكفاح الدؤوب :

فى المرحلة الاولى كان السؤال : « أكون أو لا أكون » مصـــحوبا بارتباط عضوى بمنطقة جسدية بعينها ، وفى المرحلة الثانية كان السؤال : « أكون مستقلا » هو الآخر مرتبط بمنطقة جسدية وهى العضلات بصـــفة عامة والعضلات غير المخططة (العاصرة) بصفة خاصة والتى كانت أكثرهـــا حساسية تلك التى تحيط بالمنطقة الشرجيـــة ، وفى المرحلة الثالثـة كان السؤال : « اكون منفصلا وسليما » مرتبط هو ايضا بمنطقة فى الجســد تمثل العنصر الرئيسى المميز لهذه المرحلـــة فيمـا يختص بالتمييز الجنسى وما يصاحبه من مبادرة وذلك العضو هو القضيب وأما فى المرحلة الرابعـة فاننا لا نجد مثل هذا الارتباط الواضح بمنطقة جسدية بعينها ٠

فالغرائز فى تلك المراحل الثلاث كانت واضحة وبارزة وخاصـــة فى المرحلة الاولى (الطعام أو النوم بدون نظام) بينما نجد الموجة تنقلب الى حد ما فى المرحلة الثانية (التحكم فى العضلات والغرائز) ثم تعـود مرة مرة أخرى الى الازدهار فى المرحلة الثالثة (المبادرة والبحث عن المتعـــة الفورية) كما لو كان التطور هنا يمر بتموجات جدلية من أطروحة تقابلهـا أطروحة مضادة ثم جماع للاطروحة يصبح هو بدوره أطروحة جـــديدة تقابلها اطروحة مضادة وهكذا ٠ الا اننا نستطيع أن نرى فى تلك المراحـــل الثلاث الاولى ما يجمع بينها من ميل الى غلبة الغرائز فى مقابل التحكم فيهـــا (الانا الاعلى) ونجد بالتوازى ايضا بروز المناطق الجسدية المحددة (الفم ثم الشرج ثم القضيب) فى مقابل الجسد ككل ٠



العلاقة الجدليه بين المراحل الاربعة الاولى فى
توصل الرغبة والتحكم فى الرغبة

ولذا فان المرحلة التالية وهى المرحلة الرابعة عند اريكسون والتى يسميها مرحلة المثابرة وهى تقابل مرحلة الكمون عند فرويد والتى تبدأ فى حوالى سن السادسة حتى المراهقة وتتميز فعلا بانها اشبه بالاطروحة المضادة بالنسبة للمراحل التى سبقتها ٠

فالطفل ازاء ازدهار رغباته وغرائزه وما يصاحبها من تخيلات وردود فعلها من التخيلات المقابلة فى صورة العقاب والاثم والمبالغة فى التحكم فى الغرائز يجد أنه لا مفر من أن يتحول فى الاتجاه الآخر ٠ والمجتمع يسهل له ذلك بأن يسدل الستار على تلك الحقبة من تاريخه التى تتميز بالبهجة والمتعة ويطالبه بالانتقال الى عملية ترجمة تخيلاته الى واقع بواسطة المثابرة والعمل الدؤوب مع القدرة على تأجيل لذاته :

فالطفل الذى يريد أن يحصل على أمه يكتشف انه لا يملك الامكانيات الجسمية أو النفسية أو المادية التى تسمح له بذلك فلا مفر من أن تفضل الأم زوجها كرفيق وند ، وازاء هذا الاحباط فان الطفل بواسطة صلحه مع أبيه يؤجل معركته معه الى حين يكتسب خبراته ويصبح نداله فهو بواسطة التوحد معه وجعله مثله الأعلى يتجنب انتقامه بل يكسب حبه فيتعلم منه حتى يصير مثله ، ويختار هو أيضا رفيقة له كما فعل أبوه وأمه ٠ فبواسطة هذا التأجيل يبتعد الطفل عن جسده وغرائزه ولهذا يسمى فرويد هده المرحلة مرحلة الكمون ولعل هذا يفسر عدم بروز منطقة جسدية غالبة بعينها فى هذا الوقت بل نجد الطاقة الغريزية (الليبيدية) موزعة على الجسد كله وتتحول عن الهدف الشبقى الى الاستمتاع بالانجاز الذى يتوج مثابرته فى العمل .

ان الطفل صاحب هذا المطلب يجد المجتمع مستعدا لتحقيق مطلبه هذا فهو يوفر الوسائل التعليمية المختلفة فى صورة المدارس حيث يتعلم أسسا لمهارات عديدة ، والاسرة فى هذه المرحلة تقل اهميتها اذ انها استطاعت بواسطة النظم الاجتماعية أن تنقل هذا العبء فى التربية الى المجتمع الاوسع فى صورة المدارس ، الا انه تاريخيا كان هذا (ومازال فى كثير من المجتمعات) هو دور الأسرة .

فان الفلاح يذهب معه ابنه الى الحقل ويتعلم منه الزراعة وتفعل الابنة نفس الشىء مع امها فى حالة الحرف المنزلية المختلفة ، وهنا تنتقل علاقته بالأشياء التى يتعلمها من مجرد اشباع لحب استطلاعه ومجرد اللعب بالاشياء والاستمتاع بها الى تقييم فوائدها الموضوعية فى عالم الانتاج والعمل فهو يستعد لأن يكون صاحب حرفة يستطيع بواسطتها أن يحصل على مصدر للرزق والعمل الذى يؤهله لأن يكون مثل أبيه (والبنت مثل امها) مسئولا عن زوجة (أو زوج) ثم أسرة ، فالجنس لم يعد مجرد متعة تشبع بدون ثمن أو مسئولية ولكن لابد له لكى يستمتع به أن يحصل على ما يستطيع أن يقدمه كمقابل وهى هنا القدرة على العمل والانتاج والمساهمة فى البنيان الاجتماعى ٠

أن تصوره لذاته لم يعد محدودا بجسده وانما امتدت تلك الحدود لتشمل الادوات التى يتحكم فيها والمهارات التى يستطيع أن يكتسبها . انها

بحق بداية الانسان التكنولوجى الذى يتعامل مع الادوات فى اطار برنـــامج أوسع يكون هو فيه جزءا من كل فهو فى المدرسة واحد بين تلاميذ عـــــدة أسوة بما سوف يحدث فى المصنع أو الجيش ، وهو ينتمى بواسطة المدرسة الى كيان له وظيفة وعمل وليس كيانا كالأسرة يرتبط أساسا بالدفء والحب والراحة والاشباع . فهو بواسطة هذا التفضيل للعمل على الاستمتـــاع والحرمان على الاشباع والتعب على الراحة يستعد لدوره فى المجتمع الاكبر حين يطلب منه أن يعطى للجيل القادم من الاطفال ماتلقاه هو فى طفولتـــه او اكثـــر .

فاذا نجح الطفل فى هذه المرحلة فانه يشعر بالرضا عن نفسه وبالقوة الناتجة عن قدرته على التحكم والحصول على المهارات أما اذا فشـــل فانه يشعر بالنقص الذى قد يدفعه الى أن يحن الى ماضى الاستمتاع الأسرى فى المراحل السابقة وما صاحبه من منافسة وغيرة ، والغيرة والعقاب اللذان قد يعوقا الانجاز فى هذه المرحلة قد يكونا خارجيين فى صورة قصور المدرسة أو غياب القدوة من جانب الأبوين اذا كانت حياتهما ينقصها العمل والاعتزاز أو قد يكونا داخليين اذا كانت الذات قاصرة فى قدرتها على استخدام الادوات أو اذا كانت الاشباعات الغريزية من المراحل السابقة مازالت تلح فى العـــودة اما لكونها لم تكتمل او للافراط فيها مما يجعل التخلى عنها صعبا .

ومن جانب آخر فان الطفل بدافع الانكار لتلك الرغبات الملحة أو بدافع من انكار مواز فى والديه قد يبالغ فى الاهتمام بعمله على حساب وجدانه كما لو كان العمل هو التكفير الوحيد عن هذا الذنب الذى اقترفه حينمـــا كان فى جنة الطفولة واكل الثمرة المحرمة فعوقب عليها بالطرد من الجنة وحكم عليه بالأشـــــغال الشـــاقة .

ان التوقف عند هذا المفهوم هو الذى يؤدى فيما بعد الى الانسان الآلى الذى يعمل دون كلل مثل سيزيف يكرر نفسه دون متعة او ابداع أو معنى . انه لم يعد يستطيع أن يجد لنفسه قيمة الا من خلال عمله فاذا توقف عن عمله لسبب أو الآخر بل حتى لو انه اخذ فترة راحة ولو قصيرة فانه يشعر بالنقص والذنب .

وعلى مستوى الأسرة فاننا نجد أن الاسرة التى تحيا فى ظل ظـــروف اجتماعية تحتم عليها العمل الدؤوب على حساب اللـــذة فهى فى مكـــانة اجتماعية تفرض عليها العمل من أجل البقاء مع وجود أمل فى تخطى مرحلـــة البقاء الاساسى والانتقالى فى السلم الاجتماعى الى اعلى وبالتالى الحصـــول على الجزاء فى صورة امكانية الاستمتاع (الذى يتوفر بالحصـــول على المال والسلطة) انها أسرة الطبقة المتوسطة التى لا ترضى بالعدم وتطمح باستمرار فى الصعود . ولكن ثمة الصعوبا هو العمل الدؤوب المضنى فالقيم عند هذه الاسر يغلب عليها تغليب التحكم فى الغرائز وتأجيلها على قيم الاستمتاع واللذة والجمال وهى بالتالى تتميز بالمحافظة والنظام والدقة وتميل للوسط السياسى.

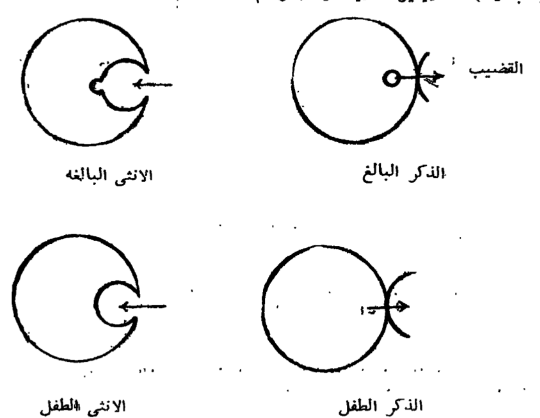
أما المجتمع الذى ينمى فى هذه المرحلة فى الانسان فهو المجتمع التكنولوجى الذى يضع الافضلية للعاملين المنتجين فيه آكثر منها لمالكى القـــوة المالية أو

العسكرية فى حد ذاتها والتى تتحـول هى بالتالى الى خادمة لهــذه القيم ولحامليها من التكتيكيين العاملين . ولعلنا نجد هذا التغليب فى تاريخ المجتمعات حينما تطول مرحلة المبادرة والاثراء السريع السهل والمغامرة وما يحـدث لها من مضاعفات نتيجة لهذا الاثراء مثل الغرور والمبالغة فى التسلط والانحلال والمبالغة فى الاستمتاع ، فان مثل هذا التطور يتلوه رد فعل فى اتجاه تغليب العمل على اللذة ولعل المجتمعات الرأسمالية تمر بهذه النقلة بطريقة تدريجية بينما نجد هذا التحول اكثر حدة فى حالة الاتحاد السوفيتى واكثر ايضـا فى حالة الصـين .

المرحلة الخامسة ، الهوية ــ ثورة البعث :

لعله تأكيد للجدلية فى التطور أن يتلو الكمون الشديد فى مرحلة المثابرة زوبعة المرحلة الخامسة ، ولعلها أعنف ما يواجه الانسان فى مراحل تطوره ، فالجســد يعود مرة أخرى ليقحم نفسه على الوجود من خلال نموه المفــاجئ فى الحجم والشكل علاوة على التغييرات الكيمائية (الهورمونيه) مما يصيب الشاب بهزة فى كيانه تجعله يكاد يفقد التعرف على نفسه فيسأل بالحاح وبعمق (من أنا ؟) وهنا تبرز مشكلة الهوية التى تكون جوهر صراع هذه المرحلـة فى حياة الانسان .

ان عودة الجسد هذه وان كانت تشمل الجسد كله الا أن محورها يرتكز حول الاعضاء التناسلية التى تصبح جاهزة للانجاب وهنا يشار الى هــذه المرحلة بالتناسلية بدلا من « القضيبيه » التى كانت تميز المرحلة الثالثـة (المبادرة) .. ويميزها أريكسون بالرسم هكذا .



الذكر البالغ — الانثى البالغه

الذكر الطفل — الانثى الطفل

ففى هذه المرحلة تعود ذكريات الصراع الأوديبى والرغبات المحرفة تجاه الاب أو الام وخاصة فى وجود الاسرة الاساسيه حيث يستمر الشـــاب (١) المراهق فى علاقة مادية وعاطفية مع أسرته وخاصة فى المجتمعات المزدحمـــة والمحدودة الموارد ومع صحوة هذه الرغبات مع وجود استمرار التحريم للاشباع فان الصراع بين رغبات الشاب وامكانيات الاشباع يصير عنيفا بالغ العنف واذا أضفنا الى هذا البعد الزمنى الذى جعل من مرحلة الشـــــباب هذه مرحلة مطولة بالمقارنة مع الحقائق البيولوجية فان عنف الصراع بالاضافة الى طوله يجعل هذه المرحلة فعلا من اخطر مراحل تطور الانسان ففيها امكانيات الخلق والابداع وفيها مقابل ذلك امكانيات القتل والتشويه ٠

ان الشباب من الناحية البيولوجية يكتمل نموه فى فترة قصيرة ويستطيع ان ينجب ويعمل اسوة بأبيه الا أن التقدم الحضارى والتكنولوجى اطال فى فترة الاستعداد فى مرحلة الدراسة واضاف مرحلة للتخصص فى اختيار المهنة وهى مرحلة التعليم العالى التى قد تستمر من عامين الى خمسة عشر أو عشرين عاما ٠ والشاب لهذا يؤجل ممارسة حياته الجنسية كاملة (بمعنى الزواج والانجاب) وهو لهذا يضع على حياته « موراتوريوم » « moratorium » أى تعليق أو وقف لنشاطه حتى يتم استعداده للممارسة ٠ وهو توقف بين مرحلتى الطفولة والرشد ولعله يمثل نقطة تحول جذرية فى حياة الانسان من مرحلة كان تكون فيها فى تعارض بين تلقائية فى متطلبات المجتمع الى مرحلة يأخذ هو الجانب الايجابى ويساهم فيها مع المجتمع فى تكوين الجيل القادم ٠ ومن مرحلة كان فيها يعيش داخله فى تعارض مع خارجه الى مرحلة يصبح فيها هو جزءا من الخارج أى المجتمع (الذى يتعارض مع داخل الآخرين) ومن مرحلة كان هو المفعول به الى مرحلة يصبح فيها هو الفاعل ٠

ان الازمة التى يعيشها الشاب هى أزمة الهوية « identity crisis » هى تلك الازمة التى يؤدى فيها التساؤل : « من انا » الى اهتزاز فى كل مفاهيمه السابقة عن تصوره لذاته ٠ فبواسطة هذه الهزة يعيد الشـــباب تشكيل ذاته من جذورها منذ بداية حياته فيعود يحيا جميع مراحل حياته السابقة التى دفنت أو تأجلت عند الانتقال فى كل مرحلة الى التى تتلوها، ان النجاح فى هذه المرحلة يؤدى الى اكتشاف الشاب لهويته واذا فشل فى ذلك فانه يضيع فى حالة من ارتباك الدور أى محور صراعه هو الهـــوية فى مقابل ارتباك الدور : identiy v/s role confusion

واذا استطعنا أن نلخص المشكلات الاجتماعية التى يعيشها الشاب هنا فهى تدور حول اختيار المهنة واختيار الرفيقة أو الرفيق الجنسى وهى مرحلة ماقبل الممارسة للمهنة أو الزواج ومن خلال مجابهة الشاب لهاتين المشكلتين فهو يكتشف اجابة السؤال : « من أنا ؟ » وهو لهذا ينظر الى الفتـــاة التى يختارها وليس لشخصها ولكن الى المدى الذى يستطيع أن يحدد بواسطتها هويته وكذلك نظرته الى اختياره لعمله ٠

فلننظر الى الخلف قليلا لنرى كيف أن المراحل السابقة تؤثر على عملية الاختيار هذه . فاذا عدنا الى المرحلة الاولى حيث مشكلة الأمان فان الشاب اذا لم يشبع من هذه المرحلة نجده يبحث فى فتاته عن البديل للام التى تستطيع أن تعطيه هذه القاعدة الاساسية التى لاتزعزع ولا ترفض لهطلبا فهو يطلب منها أن تدور فى فلكه وتعيش لارضائه وتقويته حين يضعف ويحتم عليها أن تفهمه دون ان يتكلم فتجيب مطالبه دون حاجة الى أن يبوح بها فاذا لم تفعل انكمش فى ذاته وسعى الى العودة الى الرحم مرة أخرى واذا لم ينجح فى تحويلها الى رحم فانه يلجأ الى الارض فيسعى الى الموت ليدفن نفسه فى بطنها وتراوده الرغبة فى الموت أو الانتحار ، أو قد نجده منذ البداية رافضا لأية علاقة خائفا من وضع ثقته فى اى شخص آخر مادامت خبرته الاساسية انه ليس هناك امان .

واذا عدنا للمرحلة الثانية حيث المشكلة هى تأكيد ذاته المنفصلة فاننا نجد مظاهر هذا الصراع فى الشاب المراهق الذى يحاول السيطرة على رفيقته او يقبل سيطرتها عليه لكى يعيش من جديد تلك المعركة من أجل الاستقلال من هذه السيطرة او نجده متعلقا بها لا يعترف بحقها فى التواجد المستقل .. وتكثر معارك تأكيد الارادة بالعناد ونوبات الغضب العنيف التى قد تصل الى حد التعارك الجسمانى ، وقد يرى فى كل رفض من جانبها لطلباته التحدى لارادته او قد يرى فى كل طلب من جانبها محاولة لاخضاعه واذا ما اختار المسافة المناسبة لابعاده عن مجال المعارك فان علاقته قد تتصف بالهدوء النسبى ولكن بعيدا عن أى اقتراب او دفء حقيقى بل انه يمارس قسوته من خلال أدبه الزائد . وهنا تتصف الرفيقة بانها لا تعدو أن تكون مجرد موضوع ملكية يحتفظ بها ويسيطر عليها .

واذا ما عدنا الى المرحلة الثالثة نجد الشاب قد ينظر الى رفيقته بمقدار ما تشبع قدرته على الانتصار فكلما كانت صعبة المنال كلما سعى اليها وحين يحصل عليها فانه يستغنى عنها فقد أدت الغرض المطلوب وهو اثبات أنه منتصر وقادر على اقتحامها أو توقيع الشاب فى شباكها ونجده يختار من يستطيع أن يزهو بها ويجعلها كالزينة التى يعلقها فى ممتلكاته وهو لايريد أن يحتفظ بها ولكن يريد مجرد الحصول عليها ، وينتقل من فتاة الى أخرى دون أن يستقر أو يشبع من اى منهن فهو فى داخله يشعر بعجزه وخصائه ولايستطيع المجازفة بالدخول فى علاقة دائمة .

واذا ما عدنا الى المرحلة الرابعة حيث العمل الدائب فقد نجد الشاب يكبت أية رغبة جنسية ويصر على الاستمرار فى مرحلة الصبا والكمون من عمل جلود .. ومن جانب آخر يرفض تلك المرحلة السابقة برمتها فنجده بعد أن كان مجدا فى عمله حى الضمير دقيقا منظما فى حياته متشبثا بالقيم و الخلق يثور على كل هذا ويتحول الى النقيض تماما فى صورة اللعب واللهو والمغامرة .

وهو فى محاولاته لتأكيد ذاته والانفصال عن أسرته قد يسعى الى رد الفعل بأن يختار الرفيق أو المهنة التى تخالف صورة أبويه وهذا يفسر لنا

العلاقات التى تحدث بين الفئات المختلفة فى الدين والجنسية والطبقة الاجتماعية الا ان هذه الخلافية ليست الا الوجه الآخر للعملة بالنسبة للطاعة والتى تأخذ صورة الاختيارات المتشابهة كأن يتوارث الابناء أعمال ومهن آبائهم ويتزاوجون فى الدائرة العائلية المحدودة أو يتزوجون من يشبهون آباءهم بشكل أو آخر على حساب تلقائيتهم .

والأمثلة التى نستطيع أن نسوقها كثيرة وتأخذ جميع الصور الممكنة وفى تقلب سريع لدرجة أن الصورة الاكلينيكية التى تأخذها أزمة الهوية حينما تصل الى حدة تستدعى النصح أو العلاج ، هذه الصورة كثيرا ماتشبه مرض الفصام الابتدائى الذى تظهر فيه مختلف الاعراض الذهانية والعصابية فى تداخل محير . ففى هذه الازمة حيث يعيد الشاب بناء نفسه بأن يعود الى المراحل السابقة التى لم يكتمل نموه فيها ويصفى ما تبقى فيها من حسابات ويبدو عليه مظاهر الامراض المختلفة ولكنها فى الحقيقة أقرب الى عملية الصهر الذى من خلاله يمكن أن يعاد بناء شخصيته وهى عملية ثورية لايخرج منها الشاب كما كان ابدا أو كما يقول لانج (١) عن الازمة الذهانية الحادة : « لقد رأيت عصفور الجنة . . ولن تعود الاشياء كما كانت ابدا . . ابدا . . » .

ان المبالغة فى الحدة فى هذه الازمة ينتج عنها أن يخرج منها الشاب ثائرا يتحول الى مجرد متمرد سرعان ما تنطفىء ثورته ، خاصة اذا ما نجح فى استفزاز قهر الاسرة والمجتمع له فينهزم فيقتل هذا الغليان ويجمده ويصير بهذا مجرد آلة خاضعة متكيفة مع المجتمع ، وقد ينجح فى تأجيل ثورته الى أن يأتى الوقت المناسب والامكانيات المناسبة فى مرحلة تالية من عمره فيترجم ثورته الى عمل ثورى .

فاذا نظرنا الى المقابل الاجتماعى لهذه الازمة فاننا نجد الاسرة وهى تعيش مع الشاب أزمته ، وهذه الازمة بالنسبة للاسرة هى بمثابة يوم الحساب فان كل ما اقترفته فى حق هذا الشاب فى طفولته يعود اليها من خلال ثورته عليها فيصيبها بالتالى بأزمة فى هويتها . وقد تنجح الاسرة فى عزل الشاب الثائر تحت لافتة المرض النفسى فتضفى عليه صفة الانحراف عن السواء الذى يتمثل فيها وتستعين بالطبيب النفسى ليؤكد هذه الصفة ويعاونها فى اعادته الى حظيرة الطاعة لقيمها فتطفىء رؤيته لحقيقتها وترفض طلبه الحساب . ولكن قد تستفيد الاسرة من الثورة عليها فتعيد هى الاخرى تشكيل نفسها وبنيانها وتتطور مع الشاب الثائر بالحوار معه بدلا من اخضاعه . واذا كانت الاسرة راسخة الاحساس بهويتها واثقة من نفسها فان الثورة عليها لن تصيبها بل ستثريها بالتفاعل معها ، أما اذا كانت ذات هوية مهزوزة فهى سوف تنجرف فى تيار الثورة المتمردة هى الاخرى وتتزلزل من اعماقها أو تفعل العكس فتتمسك بموقفا رجعيا متحجرا .

(١) R. D. Laing «The Politics of Experience and The Bird of Paradise» Penguin / London, 1960

ونستطيع أن نرى هذه الازمة فى هوية الاسرة فى الاسرة التى تنتقل من مكانة اجتماعية الى أخرى أو من حضارة أو بيئة الى أخرى . فالاسرة المهاجرة من الريف المحافظ الى المدينة المتغيرة سوف تجد نفسها ازاء هذا الاهتزاز فى القيم اما متشبثة بالماضى محتفظة بتقاليدها الريفية بدرجة تعيق تكيفها مع البيئة التى تعيش فيها بل تعزلها عنها أو قد تبالغ فى تقليد الجديد مما قد يؤدى الى انهيار فى القيم .. وأحيانا نجد كلا الحلين فى جيلى الاسرة فالاباء يتمسكون بالقديم تمسكا زائدا بينما الابناء يبالغون فى سعيهم وراء الجديد ، وكم من أب متدين محافظ وجد أبناءه متجهين الى التحلل من قيمه وان كان العكس يحدث أحيانا أن يعود الابناء الى التمسك الزائد بالقديم كمظهر لثورتهم على آبائهم .

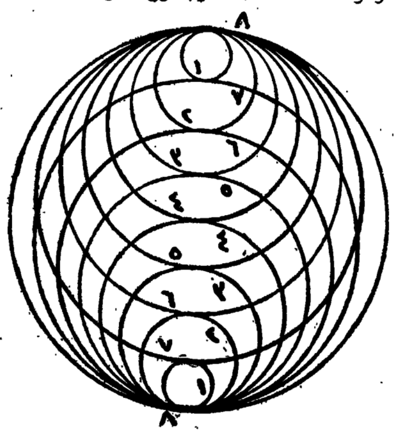
ونجد فى المقابل الاجتماعى على المستوى الأوسع ثورات الشباب فالشباب فى ثورته على الآباء يرفض الاب المباشر وكذا الاسرة البيولوجية ولكنه بانتمائه الى مذهب أو أيديولوجية أو حزب أو جماعة ومالدى كل هذه الجماعات من أبطال وزعماء حقيقيين واسطوريين انما يعيش انتماءه لابويه وأسرته من الباب الخلفى فالشباب الذى يثور على واقعه الاجتماعى والسياسى انما يرفض فى الحقيقة واقعه الاسرى (وهذا لا يعنى اطلاقا أن الواقع السياسى والاجتماعى مثالى ولا يستدعى الثورة عليه فان مثل هذا الواقع المثالى لا وجود له طالما أن الانسان والمجتمع يتطوران ويعيان ويسعيان الى الافضل ولكنه يعنى أن هناك موازاة فى مظاهر الثورة فى المجتمع والاسرة وان الدوافع تختلط وتتداخل ، وأسوة بالثورة على الاسرة نجد الشباب فى ثورته على المجتمع قد يرفض ماهو قائم بحثا عما هو أفضل كما يتصوره مستقبلا ــ وهى تقابل ثورات اليسار ــ أو برفض ما هو قائم بحثا عما هو أفضل كما يتصور أنه كان موجودا فى الماضى فيعود الى أمجاد الاجداد والماضى والتاريخ ــ وهى ثورات اليمين ــ الا أن أكثرية الشباب قد يمارس ثورته بالسالب بأن يتظاهر بالخضوع للواقع والتكيف معه بينما هو يغلى بداخله ، وقد يستمر الغليان فيتحول بعد انتقاله الى مرحلة أخرى من عمره الى عمل ثورى أو قد لا يتحمل الم الغليان فيطفئه بعملية انتحار حسى فيقتل أحاسيسه ويتبلد ويتحول الى انسان فاقد الهوية ووضعه فى المجتمع وضع الترس فى الآلة .

واذا انتقلنا الى أزمة الهوية على مستوى المجتمع الاوسع نستطيع أن نرى كيف أن الامم فى بحثها عن هويتها تمر بأزمات مشابهة ، فمصر مثلا بعد انتقالها من مرحلة الاعتماد الكامل على الغرب والخضوع له والتوائم معه والموافقة عليه فى أمان واستقرار نسبيين تثور على الغرب وتنفصل عنه بخلافية تؤكد فيها ارادتها المستقلة وتتصارع معه لدرجة الاحتدام بالعنف (ثورات ١٩١٩ ، ١٩٥٢ و ١٩٥٦ وغيرها) ثم تبحث عن هويتها بين انتمائها الافريقى والعربى والاسلامى متحدة تارة ومنفصلة تارة اخرى مع غيرها وهى فى كل ازمة تعاود احياء الازمات السابقة فتعيد الحريات والانفتاح ثم تسحبها اذا ما فلت العيار وزادت القلقلة . وفى كل أزمة تظهر التيارات

الثورية المختلفة سواء كانت فى اتجاه اليسار أى السعى نحو التغيـــير الى المستقبل أو اليمين أى السعى نحو التغيير الى الماضى وفى الوسط نجد الواقع الذى يقاوم التغيير وبهذا يخدم الحفاظ عــلى تراث وأساس راســـخ من الهـــوية .

بقى أن نضيف هنا زاوية أخرى خاصة بفكرة تداخل مراحل التطور المختلفة ، فكما ذكرنا ان هذه المرحلة هى بمثابة نقطة تحول من حالة السالب أو المفعول به الى حالة الموجب أو الفاعل ، أو من حالة الذىيأخذويتأثر الى حالة الذى يعطى ويؤثر أو اذا أخذنا بمفهوم بيولوجى من حالة تغيير الذات autoplasticity الى حالة تغيير الاخر alloplasticity فالشباب هنـــا يجد نفسه لاول مرة يمارس الزغامة على فئة أخرى الا وهى فئة الصبيـــه التى تقع فيها مرحلة الكمون أو المثابرة .. فالشاب بالنسبة الى الصـــبى يمثل البطل الثائر الذى يقوم نيابة عنه بما يتمنى هو أن يفعله وهو بالنسبة للصبى المثل الاعلى الذى يقتدى به فالصبى بعد أن كان يقتدى بأبيه فى المنزل وينتمى الى الاسرة أصبح ينظر الى المدرسة والى الزعامات الشابة للاقتداء بها بالاضافة الى تقليد أبيه ويسير فى خطاها بدلا من التبعية التامة لاسرته .

ولعلنا نستطيع أن نصور هذه العلاقات بالرسم البيانى بأن نضـــع رسمين للدوائر المتداخلة أحدهما مقلوب فوق الاخر هكذا :



شكل ٣ ــ ١٠

فاذا رقمنا المراحل من أسفل الى أعلى فى اتجاه التطور الزمنى فـــان الترقيم المعاكس من اعلى الى أسفل في الدوئر المقلوبة يمثل المرحل المقابلـــة والمتفاعلة فسوف نجد كيف أن المرحلة الخامسة (الهوية) تتداخل مع المرحلة الرابعة (المثابرة) وفى حديثنا فيما بعد عن المراحل التالية سوف نشـــير الى كيفية تداخل تلك المراحل المتقدمة مع المراحل السابقة .. ولعل هـــذا يبرر التعرض للحديث عن جميع مراحل الانسان فى كتاب عـــن الاطفال إذ أن الطفل لا يعيش فى فراغ بمعزل عن المجتمع انما هو يمثل جانبا من التفاعل مع المجتمع سرعان ما ينمو ويأخذ على عاتقه المزيد من الايجابية كفـــاعل ويؤثر بالتالى على الاجيال التالية وهكذا يستمر التراث وتبقى لكل مجتمـــع عناصر هويته على مر الزمان بالرغم من تغيير الافراد .

المرحلة السادسة ، الالفة ـ عش الزواج الدافىء :

أن معركة الشاب تدور حول تأكيد الذات والبحث عن هويته بالانفصال عن أسرته وهو بانفصاله عن أسرته انما يمهد لتكوين أسرة جـديدة . وبدون هذا الانفصال لن يستطيع أن يحول انتماءه الى أسرته الجديدة انما سيبقى متعلقا بالقديم ولن يستطيع العطاء لزوجته أو أبنائه وانما سيتمسك بعلاقة الاخذ التى ميزت انتماءه الى أسرته الاصلية كما انه بنجاحه فى تأكيـــد ذاته يستطيع أن يتنازل عنها وعن الانغلاق داخل حدودها بأن يشارك انسانا آخر الحياة .. كما أنه بتأجيله لممارسة عمله أو مهنته انما يحمل لاختياره لهـــذا العمل أو المهنة أساسا راسخا من الاستعداد والتدريب الطويل يستطيـــع فى نهاية هذه الفترة أن يعطى من زاد علمه وتخصصه للاخرين بعد أن شبع أخذا .. فهذه المرحلة التالية تعتبر تتويجا وتنفيذا لما كان مؤجلا فى المرحلـــة السابقة أو بمثابة رفع الموراتوريوم فتتحول مشكلة اختيار المهنة ورفيقـــة الحياة الى التزام بممارسة هذا الاختيار وتثبيته فى مجال الواقع الاجتمـــاعى وهى بمثابة الانتقال من حالة الثورة الى حالة الانجاز والتطبيق وتحول الى حالة من التكيف النسبى مع الواقع . وهى مظهر آخر من مظاهر الجدل فى التطور حيث تتبادل الذروة مع القاع فى تموج النمو الانسانى وتتبادل الثورة مع السكون والتطور مع التكيف .

وبالنظر مرة أخرى الي شكل الدوائر المقلوبة نستطيع أن نرى العلاقة بين هذه المرحلة (السادسة) والمرحلة الثالثة (المبادرة الاوديبيه)ممايلقى الضوء على بعض مظاهر تلك المرحلة . فالرجل (والمرأة) فيهذهالمرحلة انما يعيد باختيار الرفيق في الزوجية ماكان يتمناه فى طفولته من استحواذعلىأمه دونا عن أى طرف ثالث وهو أساسا أبوه ، بالاضافة الى أشقائه ، فبالزواج يختار الرجل امرأة تكون له دون غيره وتفضله عن أى طرف ثالثويقترب منها ويسعى نحو الالتحام الجسدى بها فيحقق ما كان يتمناه فى طفولته مع أمه ولكن هذه المرة يحدث فى اطار متـــلائم مع الواقع وقابل للتطبيـــق ، فالمجتمع يبارك العلاقة الجنسية فى اطار الزواج ويعطيها صيغة القدســـية والعلانية وبفضل هذاالتوافق مع المجتمع والقيم الدينية نجد العلاقة الجنسية تنطلق الى مداها فاذا أضفنا الى ذلك هدف الانجاب نستطيع أن نرى ذروة اللقاء الجنسى فى التقاء خلية من الرجل (الحيوان المنوى) بخلية من المرأة

(البويضة) فيصبح الالتحام بين اثنين حقيقة مادية وملموسة ولعل هـذا يفسر كيف أن البعض لايجد المتعه الجنسية فى ذروتها فى وجود موانـــع للحمل بل أن بعض السيدات لا يذقن لذة الذروة فى الجنس الا فى لحظـة الولادة ذاتها .

هذه المرحلة اذن هى اعادة لنشأة الاسرة بادئه بالعلاقة الثنائية بيـــن الرجل والمرأة ساعيين وراء الالتحام الكامل الذى تصل ذروته فى الحمـــل والانجاب فتنقله بعد ذلك الى العلاقة الثلاثية بعد أن يتم الانجـاب ويدخـل طرف ثالث وهو المولود الجديدوبوجود هذاالطرف الثالث الذى يمثل امتدادا لذات الاب وذات الام على جميع المستويات بادئا بالمستوى الجسدى وهـو الامتداد الوحيد الذى يمثل أول وآخر ما يمكن أن يفضله الانسان على نفسه ويستطيع من خلاله أن يختبر قدرته على العطاء وانكار الذات فى اطار يـكون فيه الطفل هو من يأخذ كل شىء والاب (أو الام) هو الراشد الذى يعطى كل شىء . وهو طرف ثالث مشترك بين اثنين يستطيعان من خلاله أن يتحدا اتحادا حقيقيا حول هدف واحد ومن هنا نشأت فكرة الزواج الكاثوليكى الذى يفترض أن الزواج اذا تم فهو لا ينفصـم أبدا . الا أن مفهوم الاتمام هنا شـــامل ويتطلب قدرة حقيقية على انكار الذات من أجل الاطفال فان هـــذه القدرة اذا ما انعدمت فاننا نستطيع أن نفترض أن الزواج لم يتم على الوجه الاكمـل وهذا هو الذى جعل الاسلام يحلل الطلاق مع جعله ابغض الحلال .

ان المنطقة الجسدية الغالبة اذن فى هذه المرحلة هي الأعضاء التناسلية بما فيها اعضاء الانجاب وليست مجرد الاعضاء الممارسة للعملية الجنسيـة المحدودة وهى التى رسمها اريكسون فى الرسم الذى سبق أن أشرنا اليه . وهى تشمل مايشار اليه فى التحليل النفسى بالتناسلية الحقيقية أو الناضجة وهى تحقيق للتناسلية التى بدأت فى المراهقة .

ان التحدى الذى يواجه الانسان فى هذه المرحلة هو هل ينجح فى تكوين علاقة حميمة بها الفة مع آخر أم يفشل بالاحساس بالعزلة والوحدة أو بتعبير اريكسون هو صراع حول الالفة فى مقابل العزلة «intimacy v/s isolation»

وكالعادة فى كل نقلة من مرحلة فان النجاح يتوقف على مدى النجاح فى تخطى المراحل التى سبقتها بالاضافة الى ملابسات وظروف المرحلة الحـالية فالازمة عند كل نقلة والتى تحدث مثل نقـلات الانســـلاخ (فى الحشرات) metamorphosis توقظ أزمات الماضى ويمكننا عقد المقارنة مع الامراض العضوية فالمريض الذى يتغلب على مرضه قد يقضى عليه تماما أو يتـوقف عند الحد من انتشاره فيتحول الى الادمان أو ترك بقايا منه (كحامل الملاريا أو التيفود) ويستطيع ممارسة حياته عاديا حتى يواجه أزمة جديدة وهنا تجد الامراض القديمة فرصتها للعودة بمناسبة هبوط مقاومة المريض .

وكما ذكرنا ان نجاح الشاب فى تأكيدهويته وتحديد ذاته يجعله مستعدا للتخلى فى صورة مشاركة شاملة مع آخر بالزواج وكذلك فى حالة العمل بقبوله المشاركة مع فريق فيه علاقات مع زملاء ورؤساء ومرءوسين . وفى حالة النجاح

فانه لايشعر بتهديد لهويته او لذاته اذا تنازل عن شيء منها لرفيق الـــزواج او العمل . اما اذا لم يكن قد اجتاز المرحلة السابقة بنجاح فان ازمة التكيف للموقف الجديد قد تعيده الى تلك المرحلة السابقة فيعود الى رغبات الشباب في استخدام زوجته كمجرد وسيلة لتاكيد ذاته ، يؤكد ارادته عليها بمحاولات السيطره المختلفة ، يتحدث فيها بدلا من التحدث اليها اوقد يعود الى المثابـرة فيضع طاقته فى عمله ويهمل اسرته مسخرا اياها لخدمه هذا العمل اوقد يعود الى مرحلة المبادرة فيرجع الى امه او اسرته بطريقـــة مباشرة او غير مباشرة كان يبحث عن علاقات مع من هن فى حوزة رجل آخر (زوجة ابية اوامه) اوقد يعود الى مرحلة الاستقلال فيدخل مع رفيق الزواج او العمل فى صراعات عنيفة وحالات تعذيب متبادل او يعود الى مرحلة الامان فيطلب ان تلبى جميع طلباته دون تأخير او تاجيل ودون طلب . واذا كنا نسوق هذه الامثلة فهناك اضعاف مثلها علاوة على التداخل فيما بينها والتلون الذى يحدث لكل مرحلة اثناء مرورها بالمراحل التى تتلوها فالزوج الذى يصر على أن يكون سيدا مطاعا لايخالف له أمر يستمد هذا الموقف من تجميع لعدة مراحل فهو كالطفل فى المرحله الاولى (كما اشرنا) الذى يعتبر نفسه مركزا للكون وان زوجته مثل امه خلقت لخدمته بل ولعبادته ولكنه ايضا يستمد هذا السلوك من المرحلة الثانيـة من حيث انه يمارس العناد والعدوانية ويؤكد فصل ذاته عن زوجته ويسخرهـا لخدمته ليس من واقع ضعفه واحتياجه ولكن من واقع تسلطه وعنفوانه . . وكذلك يستمد سلوكه من المرحلة الثالثة الى المدى الذى تكون فيه سيطرته على زوجته بها عنصر من عناصر الاستعراض (القضيبى) والاقتحام فهــــو يعترف بوجودها المستقل ويقبله على عكس المرحلة السابقه ولكنه يريد ان ينتصر على هذا الوجود وينافسه ويسيطر عليه ، واذا نظرنا الى ماستمده من المرحلة الرابعة فسوف نجد انه قد يبرر سلوكه تجاه زوجته من منطلق انه هو الذى يعمل ويكد ولابد لكى ينجح أن توفر هى له جميع سبل الراحة واذا انتقلنا الى المرحلة الخامسة فانه قد يتحدث عن مفاهيم المجتمع للرجولة وكيف يجب ان يكون الرجل هو السيد .. وهكذا . ولكن هذا لايعنى ان كل ظاهرة سلوكية يمكن أو يجب أن تفسر بواسطة جميع المراحل فهذه قد لاتعدو ان تكون مجرد عملية هروب من الالتزام بالتشخيص أو التحديد فهنـــــاك عادة جانب متغلب أو ظاهر أو فى المقدمة . فالتشخيص يشمل كلا من القدرة على التعميم والتخصيص على السواء اى القدرة على رؤية دور جميع العوامل التى تشترك فى خلق ظاهرة ولكن فى نفس الوقت القدرة على تحديد خصائص هذه الظاهرة وكيف انها تختلف عن غيرها .

وكما سقنا امثلة فى مظاهر اضطراب مرحلة الالفة فى مجال عـــلاقة الزواج فان المجال الرئيسى الاخر الذى قد نشاهد فيه مظاهر للاضطـراب هو مجال العمل فيجب أن نتذكر باستمرار تلخيص فرويد لمفهومه عن الصحة النفسية فى كلمتين . وهما : الحب والعمل . وبتأمل هاتين الكلمتين نجـد انهما تشملان فعلا جميع مظاهر الحياة واذا امعنا التأمل فســـوف نجد ان ارتباطهما بحرف الواو يعطيهما بعد آخر فالذى يحب على حساب عمله أو يعمل على حساب قدرته على الحب يعيش حياة ناقصة أى ليست صـــحيحة

نفسيا . ولعل هذا ينقلنا الى المرحلة التالية ولكن قبل ذلك يجب ان نشير الى بعض المظاهر الاجتماعية لمرحلة الالفة .

فعلى مستوى الاسرة نجد التمسك بالعلاقة الثنائية بين الرجل وامرأته والاصرار على الامتناع عن العلاقات الاخرى المنافسة لهذه العلاقة وخاصة العلاقات التى قد تصل الى المشاركة الجنسية أو المادية مع طرف ثالث فتهدد بذلك كيان الاسرة .. هذا التمسك بالحفاظ على الاسرة هو الذى يعطى فرصة للطرفين ان يختبراقدراتهما علىاجتياز الازماتالمختلفة التى تعترضهما فى بحثهما عن الالفة والاقتراب كلامن الاخر . والمجتمع يساهم فى منع الاستسهال والهروب من العلاقة فيضع الدوافع المادية والمصالح المشتركة والروادع عند اللزوم التى تملى على الطرفين المحاولة والاستمرار فى العلاقة وقدينجح الطرفانفى اجتيازالازمات وقديكتفيا بالمعيشةداخل الاطار الاجتماعى للزواج والخضوع للضرورات الاجتماعية والمالية والقانونية دون ممارسة حقيقية للعلاقة الكاملة .

والاسرة التى لم تجتز تحدى الالفة قد تضيع طاقتها فى الحفاظ على الشكل الخارجى لها ولاتستطيع ان تضع طاقاتها فى انجازات اخرى أو تسمح لافرادها بالانتقال الى مرحلة اخرى . فكل هدفها الابقاء مثلهم على هذه العلاقة الحميمة والحفاظ عليها من الانهيار والمجتمع الذى يعيش هذا الخوف على انهيار الاسرة يؤكد هو بالتالى التقاليد التى تؤكد الشكل دون الجوهر .

فاذا انتقلنا الى المجتمع الاوسع نجد كيف أن الدول فى علاقاتها بعد اجتياز مراحل الامان والاستقلال بالانفصال عن الدولة الكبرى التى تحتمى فيها وتقع تحت سيطرتها وبعد أن تأخذ بالمبادرة وتنمى ذاتها اقتصاديا ثم تؤكد قدرتها على العمل والمثابرة ثم تبلور هويتها وتؤكد شخصيتها — تستطيع الانتقال الى مرحلة الألفة بالاقتراب من دولة اخرى دون ان تخاف على المساس بشخصيتها واستقلالها وهذا يفسر لنا اقتراب الأنداد الذى يحدث بين دول اوروبا الغربية وبالذات بين ألمانيا وفرنسا اللتين كان لهما تاريخ طويل من التصارع والتنافس أوصلهما الى نقطة اقتناع بأنهما ندان متساويان وبالتالى فان التعاون بينهما يمكن ان يكون اقترابا حقيقيا وليس سيطرة من طرف على طرف آخر . وهذا الشكل يختلف عن تجربة الوحدة الاولى بين مصر وسوريا حيث كان هناك تصور (بغض النظر عن مطابقته للواقع أو عدمه) ان هناك طرفا يريد السيطرة على طرف آخر . بل ويختلف عن علاقة نفس تلك الدول (ألمانيا وفرنسا) بالدول الاكبر وهى الولايات المتحدة فى مرحلة سابقة للمرحلة الحالية ، حيث كان هذا التصور أيضا موجودا .

المرحلة السابعة — الانتاج : ثورة شباب ناضجة :

بعد ان يمارس الانسان اختياره فى مجال الحب والعمل فيتزوج ويرسخ اساس الاستقرار الاسرى ويختار العمل الذى يستطيع من خلاله ان يحقق نفسه

فانه يصل الى نقطة يسأل فيها (وماذا بعد ؟) فان هذه النقطة التى كانت تبدو بعيدة المنال قد تحققت وما كان يستحوذ على كل جهده وطاقته وما كان يمثل له أملا يسعى اليه قد تحقق وأصبح واقعا مفروغا منه . فالزواج المستقر يعطيه التأكيد انه مرغوب فيه من آخر فانه مسئول عن تربية نشىء فى حاجة اليه ، واجادته لعمله ونجاحه فيه يجعله واثقا من اهميته فى مجاله . ولكن أبناءه بعد أن كبروا قلت حاجتهم اليه واجادته لعمله قد وصلت الى ذروتها ولم تعد تمثل تحديا أو خلقا أو تجديدا علاوة على انه يكون غالبا حصل على أقصى ما يسعى اليه من جزاء مادى أو ادبى من خلال عمله هذا .

وهنا يبرز التحدى الذى يجعله يبحث عن الهدف الاوسع من دائرة الاسرة المحدودة فهو يبحث عن الشىء الذى يستطيع ان ينجزم على مستوى أعلى من تغطية احتياجاته الاسرية . انه يواجه احتمال ان يصبح مكررا آليا لما استطاع أن ينجزه وهنا فهو لابد أن يبحث عن معنى أوسع لحياته . انها الشبيهة بأزمة الهوية فى سن الشباب ولعل هذا هو الذى يفسر ظاهرة عودة المراهقة فى سن الأربعينيات .

وان كان السؤال هنا لايدور حول : (من أنا) ؟ ولكنه اقرب الى كونه : لم انا ؟ اى مامعنى حياتى والى ماذا اهدف . انها عودة الموجه الجدلية مرة أخرى بعد الاستقرار النسبى فى الالفة بعد ثورة الشباب الى ثورة ثانية اشبه بعودة الشباب .

ان المرء فى هذه المرحلة يعود الى نفس التساؤلات والاهتمامات التى كانت تشغله فى شبابه . فهو يهتم بالبحث عن ايديولوجية تعطى معنى لحياته وكثيرا مايتجه الى الدين او الفلسفة مرة اخرى فالقضايا التى تهمه لم تعد مرتبطة بمتطلبات الحياة الملموسة كالزوجة والاطفال والعمل والمال والنجاح الاجتماعى المحدود فبعد ان اصبحت كل هذه الانجازات أمورا مفروغا منها يتساءل الانسان عن المعنى الاشمل لوجوده . وبعد أن كان تقييمه لنفسه مستمدا من احتياج اسرته على مستوى الحاجات الاساسية واحتياج عمله على مستوى القيام بدور جزئى فى اطار علمى شامل وعام جدت تغيرات فى شكل هذه العلاقات ، الاطفال تقدموا فى السن واصبح احتياجهم الملموس لابويهم أقل حدة ، وقدرته على انجاز عمله لم تعد موضع اختبار ويستطيع ان يجد لنفسه مكانا بحكم كفاءته وجدارته . ان هذه التغييرات تضعه أمام أزمة تقييم الذات فهو باحساسه انه لم يعد احد فى حاجة اليه كما كان ، يجد نفسه مواجها باحتياجاته (فالانسان كثيرا مايشبع احتياجاته للاخرين بواسطة اسقاطها عليهم واشباعها من خلالهم أى من خلال احتياجهم اليه) وهنا يبحث الانسان عن جيل اكبر واوسع فى حاجة اليه بما ان ابناءه الاصليين بنموهم يحققون التحرر من ارتباطهم الاسرى من خلال مراحل المثابرة والهوية متجهين نحو ارتباطهم براشدين آخرين غير الابوين ، فالأب أيضا بالتالى يبحث عن الابناء عامة عمن يحتاجون اليه ويصبح هو مسئولا عن دائرة اوسع من الاسرة الصغيرة وهكذا فهو من خلال اهتمامه بأبناء الآخرين يملأ الفراغ الذى تركه استقلال ابنائه عنه . ويشبع احتياجة للاخرين باسقاطه عليهم وهم يحتاجون اليه فيشبع نفسه باشباعهم .

ان الدور الذى يبحث عنه الفرد فى هذه المرحلة هو الذى من خـــلاله يستطيع ممارسة العطاء للاخرين وهو عطاء نابع من داخله وليس مفروضـــا عليه بحكم الواجب او أى شكل من اشكال القهر وهو لهذا اقرب ما يكون الى عملية الخلق والابداع بمعني ان اعادة اخراج ماسبق ان ادخله ولكنــه بصورة جديدة تحمل طابعه وهى ليســـت خلقا بالمفهوم الفنى المحـــدود ولكنها خلق بمعنى الانتاج والتوليد ويسميه اريكسون generativity

واذا كان هناك تشبيه بيولوجى جسمانى لهذه العملية يجعلنانتساءل عن الجسمية التى تتحقق من خلالها هذه المرحلة لوجدناها قريبة من عمليات الحمل والولادة والرضاعة ، فكم من فنان (وهم الذين يمارسون عمليـــات الخلق بأوضح صورها) يشبهون خبراتهم بالحمل والولادة ويعاملون انتاجهم الفنى كما لو كان وليدهم ولعل هذا يعبر عن وجود خلفية حسد للرحم والثدى breast womb envy فى كل انسان وراء الحسد الظاهرى للقضيب Penis envy او الفخر الظاهرى به • الامر الذى يفسر لنا انتشار الخلق الفنى بين الرجال اكثر من الاناث •

ولكن ما الذى يحدث فى حالة المرأة ؟ .. انمرحلة الانتاج فى المرأة تأتى عادة بعد انتهائها من متطلبات الامومة من حمل ورضاعة بل كثيرا ماتبدأ بعد توقفها عن انتاج البويضات (الاباضة) أو انقطاع الطمث (سن اليأس) ،انها عن طريق اتجاهها الى عالم العمل والانتاج تمارس تعبيرها عن حسد القضيب فى مقابل حسد الرجل للرحم والثدى فهى تعمل وتنتج مثل الرجال ولكنها تحقق فى نفس الوقت احتياجا مشابها لاحتياج الرجل للامومة والرعاية وهو ان تنقل تعبيرها عن رغبتها فى الامومة الى مستوى يتفق مع رغبة اولادها فى الاستقلال عنها فهى تنقل نشاطها من دائرة الاسرة الضيقة الى دائرة المجتمع الاوسع • وهى فى هذا مستمرة فى التعبير عن احتياجها للامومة ، ولكن مع تطويره باضافة انها بعد دخولها عالم الرجل ومنافسته باثبات قدرتها على العمل مثله أى ان تحول دافعها للعمل من عمل يملأ فراغها بعد وظيفتها الرئيسية فى الامومة الى عملا يملأ حياتها ومن عمل فيه اخذ او طاعة وتنفيذ الى عمل فيه عطـاء وقيادة وابداع أى من عمل ذى طابع انثوى الى عمل ذى طابع ذكورى بينمـــا الرجل فى هذه المرحلة مستمر فى عمله والاضافة الاساسية له هو انه يحول الدافع الى العمل من عملية انتفاع الى عملية عطاء أى من المهارة الى الخلق أو من تحد ومنافسة الى عطاء ورعاية اى من عمل ذى طابع ذكورى الى عمل ذى طـــابع انثـــوى •

ومن هنا نرى مكان التعديل الذى ادخلناه على رسم (اريكسون) انظر شـــــكل ٣ ــ ٦ ، ٣ ــ ٧ بأن جعلنا خط النمو فى اتجاه رأسى ينحرف الى الجنسين مع ابقاء الاختلاف الذى ينخفض فى الالفة عند المشاركة الزوجية مع يزداد فى المرحلة الرابعة (المثابرة) حيث الكمون والابتعاد عن الجنس الاخر حتى تأتى المرحلة الخامسة (الهواية) حين تتعدد الدوافع البيولوجية لجذب الجانبين (الذكـــورة والانوثة) وخاصـــة فى المرحلة الثالثة (المبـــادرة) ثم ابقاء الاختلاف المكمل للادوار الاسرية اى ادوار الابوة والامومة يقتربان مـن

واقع الحياة المشتركة فالرجل يشارك زوجته فى اهتماماتها ومشاعرها ثم يقتربان اكثر فى مرحلة الانتاج كما اشرنا ٠
وبهذا المعنى فاننا نستطيع ان نعتبر ان قمة التفرقة بين الذكر والانثى كادوار هى التى نشاهدها فى قمة مرحلة المثابرة (الكمون) حيث انخفاض الجاذبية بين الجنسين يجعلهما يبتعدان ويسعيان نحو تاكيد الفروق بينهما بدلا من التشابه وهذا يفسر لنا انتشار الصداقات بين الجنس الواحد فى هذه السن والتى قد تصل الى درجة الجنسية المثلية ٠ وهى تعبير عن نفور من الجنس الاخر وتأكيد الاختلاف عنه أى ان النمو الانسانى الحقيقى له اتجاه يتجاوز الجنس الامر الذى يفسر لنا كيف ان الانسان كلما زاد نضجه كلما كان الجنس بالنسبة له تعبيرا ثانويا عن وجوده الانسانى وخادما له وليس العكس ٠ فالخطأ الشائع عن أصل خلق الانسان — ان الاصل كان آدم وخلقت حواء من ضلعه — وهو نابع من الفهم المنحاز للذكر ولعل الاشارة الى خلق الرجال والنساء من نفس واحدة نجدها فى الآية : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء » (١)

واذا فشل الانسان فى تحقيق هذا الانتاج فانه يصبح راكداويتحول الى آلة تكرر نفسها دون معنى كالاسطورة السيزيفية ٠ ويسمى اريكسون صراع هذه المرحلة بالانتاج فى مقابل الركود generativity v/s stagnation فهو خال من الداخل كما يعبر عنه الشاعرت «س» اليوت T . S . Eliot وهذا الاحساس بالركود والصد أو الملل هو اقرب الى الموت من الحياة

« نحن الرجال الخاوين »
نحن الرجال المحشوين »

ويحاول المرء ان يتخطى هذه الازمة الوجودية بخطوط الدفاع المختلفة فقد يعود الى مرحلة الالفةويعوض فشله فى العطاءوالارتباطمع الدائرة الاجتماعية الاوسع بأن يزداد التصاقا بزوجته فى علاقة كفيلة symbiotic أو قد يسعى لابقاء ابنائه فى حالة تعلق مشابهة رغم استغنائهم عن تلك المرحلة فيعيق استقلالهم ٠ وقد يزداد تقهقرا فيعود الى مرحلة الهوية فيعاود نشاطه الشبابى ويبدأ فى البحث عن المتعة الجسدية فى صورة المغامرات الجنسية المتعددة أو يعاود الحيرة الشبابية والبحث عن حركة ايديولوجية او دينية يرتمى فى احضانها او قد يتقهقر خطوة اخرى ويبحث عن التعويض فى المزيد من العمل الالى والاهتمام المفرط بالمهارة على حساب الخلق او اذا عاد خطوة اخرى فانه يعود الى المباهاة والتنافس والمغامرات التى عاشها فى المرحلة الثالثةاوخطوة اخرى نحو مرحلة الاستقلال حيث تعود اليه صفات مثل الوسوسة اوقد يهتم فقط بالشعائر الدينية او خطوة اخرى فيبحث عن المتع الحسية فيزيد اهتمامه بالاكل والشرب ، وقد يفرط فى الطعام او يتحول الى المشروبات الروحية والمخدرات التى تعيد اليه تلك الجنة التى فقدها حين كان مركزا للكون٠

---

(١) سورة النساء ٠

اذا انتقلنا الى المجتمع بادئين فيه بالاسرة نستطيع ان نجد التقابل بين احتياج الاب فى هذه المرحلة وبين ظروف الاسرة فالصغار يكبرون ويسعون الى الاستقلال عن آبائهم والعلاقة شبه الكفيلة التى كانت موجودة بين الجيلين اصبحت تتحـــول الى معركة اســـتقلال لفك هـــذا الارتبــــاط وان كان الاب فى هذه الحالة هو الذى يســـعى نحو الاســـــتقلال عن اسرته وعن اعتماده عليها كمصدر تبرير لوجوده وبواسطة انتمائه للمجتمع الاوسع • اننا نرى كيف ان هذه المعركة من اجل الاستقلال من جانب الاباء فى هذه المرحلة السابقة هى الصورة المعكوسة لما يحدث فى المرحلة الثانية اى مرحلة الاستقلال عند الطفل ، الامر الذى يطابق ما نجده فى رسم الدوائر المقلوبة حيث الالتقاء بين الدائرتين ٢ و ٧ •

هذا الاب الذى يستطيع ان يحقق الاستقلال ويتحرر من ارتباطه باسرته هو الذى يستطيع ان يترك اسرته بالتالى تتحرر منه بادئا بزوجته ثم ابنائــه الكبار الذين يحتم نموهم معركة الاستقلال ، وبنجاح انتشار روح الاستقلال هذه على مستوى المجتمع الى الطفل فى مرحلته الثانية حيث يكون الاستقلال هو معركته الرئيسية فاننا نستطيع ان نرى هذا التكامل والتفاعل بين الاباء والابناء وبين المجتمع والفرد •

والاسرة التى تنتشر فيها روح الاستقلال هى ايضا الاسرة التى تســمح لكبارها بالانتاج فالرجل لايستطيع ان يضع طاقته فى العمل المنتج الخلاق اذا كان اعتماد أسرته عليه فى كل صغيرة وكبيرة يصبح عائقا لتفتحه وممتصا لطاقته • وعملية الانتاج الخلاق ذاتها لاغنى لها عن قدر من الشجاعة فى فك الارتباطات والقدرة على تجاوز العلاقات الكفلية والتى تشمل العلاقة الكفلية بكل ما هو ماض من أشخاص وأفكار وتقاليد • فالذى يستطيع ان يستقل عن هذا الماضى هو الذى يستطيع ان ينتج ويخلق ، وافراد مثل هذه الاسرة بقدر مايستطيع الاباء ان يمارسوا الانتاج بقدر مايسمحوا لهم بالاســـــتقلال الذى يسمح لهم بالتالى بالخلق والابدع •

واذا انتلقنا الى المجتمع الأوسع فسوف نجد كيف ان الحضارات تزدهر وتخلق كلما كانت قد تخطت المراحل السابقة ، فبعد أن تحصل الدولة على استقلالها وتنمو اقتصاديا بالمبادرة ثم تعمم رخاءها بين أبناءها بالمثـــابرة ثم تسعى لخلق هوية لها من الاستقلال الذاتى المتبادل فانها هنا ايضا تستطيع ان تتجه نحو الانتاج والعطاء والخلق ، اذ أن هذه الروح من الاســـــتقلال والانتاج تعم المجتمع أيضا من الداخل وتشجع الافراد على ممارسة انتاجهم ، ولننظر الى الانتاج الحضارى والفكرى فى العصر العباسى بعد ان أصـــبحت وحدة الامة حقيقة مستقرة ومفروغا منها ، أو لننظر الى الولايات المتحدة بعد ان استقرت فى الداخل فحولت اهتمامها الى الخارج فى صورة الخلق العلمى ، او الى الاتحاد السوفيتى بعد استقرار نظامه •

المرحلة الثامنة ــ التكامل : الا هل بلغت ٠٠ اللهم فاشهد :

اذا كانت المرحلة السابقة (الانتاج) تعبر عن جوهر وجود الانسان ككائن حضارى له تاريخ ينقله عبر الاجيال بالتعليم ومن خلال مجتمع فى مقابل العلم الغريزى الذى يتوارثه الحيوان اى ان هذه المرحلة تعبر عن وجود الانسان فى فعلوته (اذا جازلنا ان نؤلف هذه الكلمة على وزن الصيرورة والديمومة والكينونة) ان المرحلة الثامنة والتى يسميها اريكسون مرحلة تكامل الذات أو للاختصار مرحلة التكامل ، وهى الاخيرة فى حياة الانسان لهى اختيار المدخل الى الابدية حيث يستعد الانسان لممارسة وجوده فى كينونته ففى هذه الحقبة الاخيرة من عمر الانسان يكون قد اتم رسالته فى دنياه « ٠٠ اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ٠٠٠ » (١)

فى هذه المرحلة الاخيرة فى حياته وقد عاشها كاملة وواجه جميع التحديات وأتم كل الانجازات بأفضل مايستطيع فى وجود المعطيات التى احاطته بادئا من تكوينه البيولوجى الجسمانى الى الكيانات الاجتماعية والتاريخية التى تواجد فيها فانه يستعد للتخلى عما تبقى له فى هذه الدنياوهو جسده برمته فبممارسة وجوده بالاخذ ثم بالعطاء ، والاخذ والعطاء معا اصبحا جزءا من تيار مستمر بغض النظر عن وجود جسده وهو لهذا يستطيع ان يتركه بعد ان كان يتشبث به ٠ ونظرا لانه عاش حياته كاملة ومارسها باقصى ما استطاع وشبع منها فلم يعد عنده مايتشبث به او يندم على ضياعه٠ لقد وصل الى حالة السكينة والاطمئنان واصبح راضيا عن نفسه قادرا على العودة الى اصله (يأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية » (٢) ولعل هذا الرضى عن النفس مصدر حالة من النرجسية Secondary narcissism أى حب للذات بعد المرور بمراحل الحب للغير يجعله حبا للغير مبنياعلى حب للذات اى حب للآخرين له طعم جديد ليس فيه اجبار ونابع من تلقائية ٠فلانى احب نفسى ونفسى هى مثل نفسك فانى أحبك ٠

ولانه عبر عن كل مافى نفسه من رغبات واشبع كل مالديه من احتياجات ومارس الشىء ونقيضه فاطاع وعصى وطمع فى الجزاء وخاف من العقاب لم يعد لديه من بقايا الصراع الا القليل ولم يعد عنده من الرغبة المضادة ما يحتاج الى اشباع او تحكم وحرمان. فقد اقترب من حالة السكون التام او النيرفانا أو السكينة التى تصل الى ذروتها فى الموت ، (هناك بعض حالات تأخذ لحظات الموت صورة ذروة المتعة الجنسية) ولهذا فان الموت بالنسبة له امر طبيعى ينتظره بدون خوف او رغبة ملحة ولكن باستعداد وتقبل ٠

ولعل هذا التشابه بين نهاية الحياة وبدايتها ليس بغريب بالنظر الى الجدلية فى حياة الانسان ، فبانتهاء جسد ما فى الوجود على الارض يتسع المكان لوجود جسد اخر او كما يقول تينيسون **Tennyson فى وصفه لموت الملك** ارثر :

« لابد للقديم ان يترك مكانه للجديد لئلا يتحول الخير الى عفن وكيد »

والرحم الذى يخرج منه المولود يشبه القبر الذى يعود اليه فى نهاية حياته وحالة الضعف الجسمانى الذى يولد بها الطفل القريبة من حالة جسم الكهل والصغر التى يصل ليها فى النهاية قريبة فى شكلها من صغر البداية « جئنا من التراب والى التراب نعود » .

نستطيع ان نجد هذه العلاقة بالنظر الى شكل الدوائر المقلوبة ، فالدائرة الثامنة تلتقى مع الدائرة الاولى . ويشير أريكسون الى هذه العلاقة بالرجوع الى معانى الكلمات فكلمة Trust تعنى (حسب تفسيرها بالانجليزية) الاعتماد المؤكد على امانة (استقامة) الاخر . وتشير كلمة امانة (استقامة) الى معنى اخر من معانى كلمة intergrity والتى تعنى الكمال والتمامية ، ويضيف : ان الاطفال الاصحاء لا يخافون الحياة اذا كان لدى الكبار من التكامل (الكمال) ما يجعلهم لا يخافون الموت (1) وهكذا نجد العلاقة بين الائتمان عند الاطفال والتكامل عند الشيوخ ، فالشيخ الذى يقود اليوم انما يفعل ذلك من منطلق القيادة التى يستعد لتوليها بالغد .

ما الذى يحدث اذافشل الشيخ رغم السنين فى الوصول الى حالة التكامل هذه ؟ انه غير مستعد لتقبل الموت ويخافه فهو غير راض عن حياته ويتمنى لو أنه استطاع ان يحياها مرة اخرى ويكمل نواقصها ولكن السنين فاتت وكتب قلم القدر كلمته ولاطريق لمحوها ، انه يقف امام هذه الحقيقة باليأس وهو مايقابل التكامل . او على تعبير اريكسون « despair فالذى حدث قد حدث ولا امل فى اصلاحه واذا استطاع ان يخفى اليأس فلعله يخفيه وراء الاشمئزاز المستمر . انه اكتئاب الشيخوخة وما قد يصاحبه من محاولات على خطوط الدفاع المختلفة . فقد يتشبث الشيخ بالانتاج ويسعى للاستمرار فى عملة السابق او عمل غيره حتى الموت ، فاذا لم يستطع مات (ولنذكر دى جول وتشرشل ، وغيرهم) وقد يعود خطوة الى الخلف فيلتصق بزوجته فى علاقة كفليه ويعتمد عليها ويتشبث بها ، او خطوة اخرى بسعيه الى الشباب بأن يغازل الفتيات او يشارك احفاده الشباب هواياتهم او خطوة أخرى بأن يمارس عمله ثابرا مثابرا كأن يهتم بالطهو أو الاعمال المنزلية أو الزراعية او خطوة اخرى بان يقلب الاية الاوديبية فيتعلق بابنته المتزوجة او بزوجة ابنه ، أو يعتمد على أولاده ويعوق استقلالهم أو يعود طفلا بمرضه وشيخوخته فيطلب الرعاية الكاملة بأن يتولى الاخرون اطعامه والامثلة لاحصر لها فى الجانب الايجابى أسوة بالجانب السلبى .

واذا انتقلنا الى المجتمع فسوف نجد على مستوى الاسرة كيف تخلق الاسرة مكانة خاصة فيها للجد فتلبى له احتياجاته وتسمح له بممارسة وجوده على كافة المستويات فكثيرا ماتكون العلاقة متبادلة الفوائد كأن يترك الاحفاد

Erikson: «Childhood and Society» , Norton, New York, 1950

مع الاجداد بينما الاباء يتفرغون لاعمالهم فى الدنيا يشترك الابناء مع الاباء فى مسئولية الرعاية للشيوخ ٠

وقد ننتقل ببعض هذه المهام للمجتمع حيث نجد المؤسسات التى ترعى الشيخوخة وغيرها التى تفسح لهم مجالات العمل الذى يغذى فيهم تقييم الذات وبعد ذلك نجد التقاليد المختلفة التى تحافظ على ذكرى الآباء بعد موتهم ولعل الاهرامات التى تركها الفراعنة والمعابد والتماثيل رغم ما قد يبدو فيها من عبادة للفرد الا أنها تعبر عن هذا الاحترام للتراث من خلال تجسيده فى شخص فرعون ، واذا كان الانسان فى عصوره الحديثة لايلجأ الى هذا التمجيد للقيادات الفردية فذلك لوعيه المتزايد بالقيم والتراث والمؤسسات فى حد ذاتها وهى لم تعد فى حاجة الى شخص يجسدها لتبقى ٠

ولو اخذنا مستوى الدول للمقارنة مع هذه المرحلة لوجدنا ان الدولة بعد أن أثبتت وجودها وسلطانها تنتقل الى حالة من الشيخوخة المسلوبة من القوة المادية ولكنها حاصلة لقوة الحكمة والتراث فاوربا بالمقارنة بالدول الكبرى (الولايات المتحدة او الاتحاد السوفيتى) تعتبر ذات وزن محدود عسكريا واقتصاديا ولكنها مازالت منبع الفكر والفن فى العالم الغربى ،والولايات المتحدة ازاءها طالما لم تتجاوز تلك المرحلة من التسلط فان ماتقدمه للحضارة الانسانية لا يعدوأن يكون رقعا حضارية مفروضة بالقوة وضعها وضع الجسم الغريب الذى لن يلبث ان يمتص او ينفصل ولعل المثل الصارخ فى ذلك هو محاولة فرض اسرائيل كجسم غريب على عالم الشرق الاوسط بل العالم الافريقى الاسيوى ٠ ولعل مايؤيد تلك النظرة هو قيام تلك الدعوات الخافتة الاصوات داخل اسرائيل والتى تدعو الى ان لا أمل فى بقائها الا باندماجها مع ما حولها كبديل لعقلية التسلط التى ليست الا امتدادا وتحقيقا للعقلية المشابهة الاصلية فى الولايات المتحدة ٠

نظرة الى تداخل المراحل ـ جدلية حياة الإنسان :

ان من تعريفات العلم أنه محاولة تخفيض التباين الى تطابق
To reduce diversity to identity
فالأشياء تبدو لاول وهلة مختلفة ولكن اكتشـــافات العلم المستمرة تخفض تلك الاختلافات باضطراد فقد نبدأ بأن الشجرة تختلفعن الجبل وعن البحيرة ثم نرى فيها تشابها من حيث أن كلا منها تحوى الســائل والصــلب ، وقد نخفضها الى مادة وطاقة واخيرا نرى ان المادة والطاقة ما هما الا مرحلتان من وجود نفس الشيء بل ان الوجود نفسه ما هو الا تبادل بين الوجود والعـــدم (وهو ما يعطينا الموجات والجزئيات او بعبارة اخرى بين الشيءوضده

واذا كان هذا ماوصل اليه العلم الحديث بعد جهد قرون فانه كخبرة انسـانية يمثل نوعا من المعرفة موجوداً منذ آلاف السنين ويستطيع من عاش هذه الخبرة ان يقرءها بين سطور الكتابات الحكيمة سواء فى الكتـــب المقدسة أو فى الاعمال الفنية العظيمة (فى الشعر والموسيقى والرسم وغير ذلك) ٠

ولعل هذه المحاولة المتواضعة للربط بين القديم والحـــديث فى العلم بصفة عامة وفى علم النفس خاصة ليست الا بداية ضمن بدايات عديدة ٠

فان المحاولة التى بذلناها بالنظر الى مراحل تطور الانسان كمجموعة موجات تعبر عن العلاقة الجدلية بين الشيء وضده فى صورة الامواج المتتالية والأمواج الصغيرة تحتويها الأمواج الكبيرة هى محـــاولة للربط بين علم النفس وعلم الطبيعة وبين هذا وما أحسه الحكماء قديما وعبروا عنه بالفـن أو الدين ٠

فالوجود يتبادل مع العدم والحياة مع الموت والطفل فى مرحلته الأولى مع الكهل فى مرحلته الثامنة ٠ ووجدنا مثل هذه العلاقة الجدلية بين الرجل فى المرحلة السابعة والطفل فى المرحلة الثانية كما وجدناها بين السادسـة والثالثة وبين الخامسة والرابعة ٠ ولعل رسم الدوائر المقلوبة هو محاولة لتصوير هذه الحقيقة ٠

وجدنا من جانب آخر الاربع مراحل الاولى تمثل حالة تتصف بصـــفة عامة وهى الاخذ والتلمذ والسلبية ازاء المراحل الاربع الاخيرة التى تأخـذ لنفسـها صفات عامة تتميز بالعطاء والقيادة والايجابية والخلق ٠

ووجدنا فى كل نقطة بقايا من كل نقطة اخرى سابقة علاوة على بوادر وامكانيات كل نقطة اخرى تالية ٠ (ولعلنا من خلال هذا نجد مدخلا الى ظواهر ما فوق الحواس مثل التنبؤ بالمستقبل وتوارد الخواطر) والامثلة التىسقناها فى كل مرحلة عن تلك الآثار والامكانيات ليست الاجزءا صغيرا من التباديل والتوافيق التى تستطيعها ولعل القارىء يستطيع ان يضيف اضعافها ٠ فلا يخفى علينا أننا أحيانا نشير الى طفل بأنه عجوز ، أو الى عجوز بأن لديـــة « براءة الطفل فى عينيه » بل نستطيع ان نجد فى خبراتنا اليومية تكرارا لكل ماحدث وسوف يحدث لنا فاننا حينما ندخل فى النوم كثيرا مانســـتطيع

أن نتخيل لحظة الدخول فى القبر (مما يفسر بعض حالات القلق والخوف من النوم) وهناك مواقف يومية نمر بها بخبرات مركزه تكاد تحــــوى الماضى والمستقبل معا ونخرج منها باحساس بالميلاد الجديد .

ولهذا فقد فضلنا ان نضع الاطار العام للمراحل وتداخلها تاركيــــن التفاصيل لتأملات القارىء .

ولو نظرنا الى مراحل التطور هذه من منطلق جدل الرغبة والرغبة المضادة لوجدنا كيف ان المرحلة الاولى تمثل تغليب الرغبة اذ ان الطفل هنا لايكـــاد يتحكم فى رغباته وهو يسعى نحو الاشباع الفورى بشكل تلقائى بينما فى المرحلة الثانية نجد الإهتمام يزداد بالتحكم فى الرغبة أى الرغبة المضادة فتحكمه فى عضلاته وفتحاته وعملياته الاخراجية يمثل هذا التغلب للتحكم والابتعاد عن التلقائية . ومن هذه الأطروحة والاطروحة المضادة نجد الجماع متمثلا فى المرحلة الثالثة وهى عبارة عن عودة فى اتجاه الرغبة والتلقائية بعيدا عن التحكم ففى هذه المرحلة تصبح المبادرة هى محور وجود الطفل ونجـده مليئا بالحيوية وحب الاستطلاع والتلقائية والخلق . ومع استقرار هـــذا الجماع فانه يتحول بالتالى الى اطروحة جديدة تقابلها الاطروحة المضادة فى صورة المرحلة الرابعة حيث يعود البندول مرة اخرى نحو التحكم والبعـد عن التلقائية ففى مرحلة المثابرة يتلقى الطفل المعلومات ويمتص خبرات الآخرين ويحد من ثورته وتنافسه مع من هم مثله ، ومع استقرار هذه المرحلة كأطروحة مضادة للمرحلة الثالثة نجدها تكون جماعا لتفاعل الثالثة مع الثانية كمـــا انها تصبح اطروحة جديدة للمرحلة الخامسة التى تتلوها وهى مرحلة الهوية ففى هذه المرحلة يعود البندول مرة اخرى نحو الرغبة والتلقائية فى مقابل التحكم فى المرحلة الرابعة ، وهنا نجد ثورة الشباب ومحاولات الخلق المختلفة والرغبة فى تحقيق الذات والتعبير عن النفس . فمع بداية هذه المرحلة نجدها تمثل الاطروحة المضادة لاطروحة المرحلة الرابعة ومع استقرارها تصبح جماعا لتفاعل الرابعة مع الثالثة ثم تصبح هى أطروحة للمرحلة التى سوف تتلوها اى السادسة ، فهذه تأتى بمثابة رد فعل للخامسة من حيث انها تمثـــل عودة التحكم ، فثورة الشباب تهدأ والغرائز تستقر والعلاقات تتقلص فى الزواج ويعود الهدوء مرة اخرى وهكذا مع استقرار تلك المرحلة تصبح جماعا لما سبقها من تفاعل ثم تصبح هى الاطروحة بالنسبة لما سوف يتلوهـــا اى السابعة التى تاتى بمثابة الأطروحة المضادة حيث يعود البندول مرة أخرى نحو الرغبة والتلقائية فالمرء فى هذه المرحلة يعطى لنفسه العنان ويمـــارس الجماع بين تفاعل المرحلتين السابقتين ثم يصبح الاطروحة بالنسبة للمرحلة التى سوف تتلوها اى الثامنه التى تمثل عودة مرة اخرى الى التحكم والهدوء فهنا يزداد المرء حكمة واستقرارا ويقل فعالية ومع استقرار هذه المرحلة تصبح جماعا لما سبقها من صراع (الذى كان عبارة عن جماعات متتالية لصراعـات متتالية) وهى من حيث أنها المرحلة النهائية فى حياة الفرد فقد تبدو كأنهـا نهاية لعملية الجدل ولكننا يمكننا النظر اليها على انها بصفتها جماعا عـــلى مستوى الفرد فان الاطروحة تمثل انتهاء حياة الفرد اى الموت فى مقابـــل بداية حياة فرد آخر أى الميلاد الجديد وزوال الفرد فى مقابل بقاء المجتمع أو النوع ، أو موت الكائن الحى فى مقابل الحياة واستمراها فى التطور .

الفصل الرابع

الاسرة

الطفل هو المؤشر الذى يعبر عن حالة الاسرة وقد يقع هذا الدور على طفل بعينه دون بقية أفراد الاسرة لعوامل فى الطفل ذاته الا انه يبقى فى النهايه معبرا عن نقطة الضعف فى هذا الكيان الجماعى . فالطفل المضطرب ليس بالضرورة مجرد طفل شاذ أو مريض ولكنه غالبا مايكون المرض الذى يشير الى وجود أصل الداء فى دائرة الاسرة . ومقابل ذلك فان علاج الطفل لا جدوى منه اذا ماأهملنا تأثير الاسرة عليه بل قد نكتفى فى بعض الحالات بعلاج الاسرة لكى تتحسن حالة الطفل الا أن الاغلب أن العلاج يتناول الجانبين ــ الاسرة والطفل ــ اما كل على حدة أو فى اطار واحد ــ (وهوما يعرف بالعلاج الاسرى أو العلاج الجمعى الاسرى فدراسة الاسرة اذن أمر لا غنى عنه فى دراسة الطفل .

رغم اختلاف الاشكال والتطورات على مر التاريخ وعبر الحضارات المختلفة فان هناك دائما شكلا من أشكال الاسرة يكون البناء الأساسى للمجتمع . فهناك الاسرة ذات الاب الواحد مع تعدد الامهات وهى وان كانت قليلة الانتشار (حتى فى العالم الاسلامى حيث هى مباحة دينيا واجتماعيا) الا انها أكثر انتشارا من الظاهرة المعاكسة حيث الأم واحدة والآباء كثيرون . أو حيث التعدد لكلا الجانبين (عدد من الازواج وعدد من الزوجات) والشكل الغالب للاسرة هو الزوج الواحد مع الزوجة الواحدة والابناء منهما .

الا أنه حتى هذ الشكل التقليدى يحوى تباينا شديدا فى تكوينه . اذ أن العرف فى كثير من المجتمعات يعطى صورة مختلفة عن هذا المظهر . مثلا فى وجود سهولة الطلاق أو كثرته فان ظاهرة تعدد الزوجات أو الازواج تأخذ شكل التعدد المتتالى زمنيا بدلا من التعدد فى نفس الفترة الزمنية أو قد نجد فى بعض فئات المجتمع حين توجد صعوبات فى الطلاق أن العرف يقضى بوجود عشيق أو عشيقة لأى من الزوجين أو كلاهما وقد يكون هذا الوضع معلنا أو مخفيا ولكنه مقبول اجتماعيا . على مستوى آخر للتباين فى شكل الاسرة فسوف نجد الاسرة التى ليس لها كيان مستقل وانما هى جزء من أسرة ممتدة عرضا أو طولا أى تجمع الاشقاء وأولاد الاعمام فى الامتداد عرضا وتجمع الجد وأبنائه وأحفاده فى الامتداد طولا . وقد تتجمع عدة أسر فى هذه الحالة وتكون عشيرة أو قبيلة . وكلما قلت صلات النسب كلما اقتربنا الى صورة المجتمع الاكبر الذى كثيرا مايكون المسيطر النهائى على الاسر التى يحتوتها وقائد هذا المجتمع هو الاب الرمزى للجميع الا أنه

مع مثل هذا التوسيع فان الاسرة النووية تستعيد كيانها وسيطرتها على حياة أبنائها ولكن ثمن ذلك هو العزلة · ومن هنا نشأ الاتجاه الحديث نحو جمع الاسر بغض النظر عن روابط القرابة فى صورة شبيهة بالأسر الممتدة وهى الكوميونات وقد تكون دوافعها اقتصادية تنظيمية أساسا مثل كوميونات الصين أو قد تكون هناك دوافع أخرى متداخلة معها (مثل تعويض الشعور بالوحدة او التغلب على الملل مثلما نجد فى الكوميونات التجريبية في الغرب · ولعل هذا يشير الى أن الشكل التقليدى للاسرة النووية وان كان أكثر الاشكال استقرارا الا انه لايمثل الشكل النهائى وأن الاسرة أسوة بجميع مظاهر الحياة الانسانية تمر بتجارب وتعديلات سعيا وراء التطور المستمر الى الافضل ·

أسرة الأصل وأسرة الانجاب :

حينما نتحدث عن الاسرة فلابد أن نميز بين أسرة الاصل Family of origin وهى الاسرة التى يأتى منها الفرد فتشمل أساسا أبويه وأشقاءه وبين أسرة الانجاب Family of procreation وهى الاسرة التى يكونها الفرد بعد انفصاله عن أسرة الاصل ثم زواجه وانجابه · وأهميه دراسة الجانبين هو أن كثيرا ماتكون أسرة الانجاب مجرد تكرار جبرى لاسرة الاصل فالزوج كثيرا مايعامل زوجته كما تعلم من انطباعه عن معاملة أبيه لأمه كما ان معاملته لأبنائه كثيرا ماتأخذ نمط معاملة أبيه له · وغالبا يحدث هذا بطريقة لاشعورية بل جبرية فالشاب الذى يعد نفسه بأنه لن يعامل أبناءه كما كان أبوه يعامله يتحول بعد الزواج والانجاب الى صورة من أبيه وأحيانا تكون هذه الصورة بالسالب أى بممارسة أفعال رديدة تعبر فى جوهرها عن الفعل المعاكس الذى يريد تجنبه فمثلا تتحول القسوة المفرطة الى دلال مفرط وهى ليست الا قسوة مقنعة) ·

الا ان هذا التكرار الجبرى للماضى ليس الا الصورة غير المتطورة وغير النامية والنكوصية للاسرة ويقابل هذه النزعات المحافظة نزعات مضادة تقدميه بمعنى السعى وراء التغيير والتحرر من الماضى وفى هذه الحالة قد تشوب هذه المحاولات عناصر دفاعية كالفعل الرديد أو تغييرات مباشرة ولكن توجد بالاضافة الى ذلك نزعات تطورية حقيقية تؤدى الى تغيير جوهرى فى علاقات الاسرة الجديدة وان كانت تبدو أنها تغيير كمى فقط الا انها مع التراكم قد تتحول الى تغيير كيفى ·

وقد يكون هذا التطور فى شكل تذبذب بين نقيضتين فاذا كان الأب قاسيا يصبح الابن مفرطا فى التسامح ثم يعود الحفيد قاسيا · ولعل مشاهدة يونج Jung أن الاطفال كثيرا ما يعبرون عما فى لاشعور الآباء فاذا كانت القسوة هى الظاهرة فان المقابل اللاشعورى لها والتى تكون القسوة فعلا رديدا له هو التسامح المفرط والدماثة والعكس صحيح ·

وهكذا بين نزعات المحافظة ونزعات التطور ينتقل التراث الحضارى من جيل الى جيل وان كان يتعرض للاضافة والتطوير بدرجات مختلفة ·

وظائف الأسرة :

لعل الذى أبقى على الأسرة ككيان انسانى اجتماعى أساسى هو أنها تؤدى وظائف أساسية للانسان والمجتمع نستطيع ان نصنفها كالآتى :

١ ـ تنظيم العلاقات العاطفية والجنسية لافرادها :

اذا بدأنا بأساس الاسرة وهو التقاء رجل وامرأة بغرض ممارسة علاقة جنسية وعاطفية مستقرة نجد أن الاسرة تخلق المجال لمثل هذه العلاقة اذ ان العلاقة الجنسية علاقةمحدودة وقد تطول مدتها لعدة دقائق وتنتهى الاان وجود العاطفة كغطاء لهذه العلاقة يضفى عليها درجة من الديمومة قد تطول ولكن ليس بالضرورة الى الدرجة التى تسمح بالاستقرار الكافى للانجاب والتربية ومن هنا نشأت الضرورة لاعطاءمثل هذهالعلاقة الجنسية اطار اجتماعيايفرض عليها ديمومة تكفل الاستقرار الذى يسمح بالانجاب وبالتالى تكوين الجو المناسب لنشأة الأطفال .

بالنسبة للأطفال فان الاستقرار الذى يحتاجونه يكفل لهم بواسطةهذا التنظيم الذى يضيف اليه استقرارا بأن يعزل عامل المنافسة الجنسية بين أفراد الاسرة الواحدة بحيث لايشعر الاب بالخوف من أن يحل ابنه محله لدى زوجته فيقضى عليه فى المهد أو على أحسن الفروض يطرده من الاسرة .

أى ان الوظيفة النفسية للاسرة متعددة الاطراف وتحقق المجال للنمو النفسى لجميع الافراد على حسب مرحلة كل منهم . فبداية تكوين الاسرة تتفق مع مرحلة الالفة (السادسة) حيث يتخلى الفرد عن ذاته التى صارع من أجل اثباتها فى المرحلة السابقة (الهوية) وهى ألفة تزداد مع الانجاب وتربية الأطفال الصغار . ومع نموهم فان الزوجين يجدان الفرصة للانتقال الى المرحلة التالية حيث يمارسان العطاء للمجتمع الاكبر وذلك من خلال تعلمهما بواسطة ابنائهما واذا نجح الابوان فىذلك فان العائد يأتيهما بواسطة ممارسة الابناء (التكامل) ونستطيع أن نجد مراحل التطور المختلفة للطفل من خلال علاقته بالأسرة .

٢ ـ رعاية الاطفال :

فى هذا الجو المستقر عاطفيا والخالى من المنافسة الجنسية فان الأسرة تجد المجال للاهتمام برعاية اطفالها وتربيتهم وتجهيزهم فى المجتمع الأوسع وذلكعن طريق تأهيلهم لان يكونوا هم أرباب أسر مستقلة .فالاسرة هى المدرسة الاولى التى يتعلم فيها الطفل العلاقات الانسانية وماتتطلبه من قوانين وقواعد وأدوات مثل اللغة والعادات والطقوس ولعلها تتلخص فى القيم الحضارية والدينية التى تغرس فى نفس الطفل . اذ مازالت الاسرة هى الاساس الذى تنشأ فيه القيم الاخلاقية والدينية . وكلما تقدم المجتمع وتعقدت المعلومات كلما أصبحت فى حاجة الى تخصص مما أدى الى نشأة المدارس والوسائل

التربوية المكملة لها مثل الوسائل الاعلامية والنوادى ودور الحضانة • ومن هنا اصبح المجتمع الاكبر يمارس دور الاسرة أكثر فأكثر وان كان لم يحل محلها تماما • فمازال الطفل الذى كان يوما هو مركز كون يدور حوله ويشمل أسرته يحتاج الى استعادة هذا الشعور البدائى والذى يجده من خلال انتمائه الى اسرة تشعره انه بالنسبة لها افضل من أى فرد آخر أى مركز يدورون فى فلكه بشكل ما •

٣ ـ المصالح الاقتصادية :

اذا كانت الغريزة الجنسية قد نجحت فى جذب اثنين لفترة قصيرة والعلاقة العاطفية نجحت فى اطالة هذه المدة وانجاب طفل سويا قد زود هذه المدة لتشمل على الأقل الفترة الحرجة التى يحتاج فيها الطفل الى رعايةمستقرة من أبويه فان المصالح الاقتصادية المشتركة تضفى جانبا آخر من الاستقرار الى العلاقة الاسرية فلاشك ان مشاركة رجل وامرأة وأطفال فى مسكن واحد ومأكل واحد مع توزيع الاعمال بينهم هى وسيلة اكثر اقتصادا مما لو كان كل فرد يحيا بمفرده • ولو أخذنا فى الاعتبار أن الطفل وما ينفق من أجل تربيته لهو فى النهاية يمثل عملية ادخار للابوين يأتيهما عائدها حينما يتقدم بهما السن ويكون عائلهما وحاميهما هو الطفل الذى أصبح بفضل تربيتهما له راشدا منتجا •

مرة أخرى فان المجتمع يأخذ هذا الدور من الأسرة فالحكومات تكفل المعاشات للمسنين علاوة على أنها تتكفل بتعليم الآبناء الى حد كبير • أى ان الأسرة ككيان رأسمالى منفصل أصبحت تتجه نحو الاشتراك مع المجتمع فى الملكية والانفاق وبالتالى فانها تتخلى عن بعض سلطانها على افرادها الى المجتمع الذى أصبح بواسطة قوانينه ينظم العلاقات بين أفراد الاسرة الواحدة .

الاسرة والمجتمع :

اذا كانت الأسرة هى البنيان الأساسى للمجتمع بل هى مجتمع مصغر فى حد ذاته مستقل وفعال ومؤثر على المجتمع بقدر ما يتأثر به وبين أن يكون مجرد افراز لهذا المجتمع أو مجرد ظاهرة سلبية تعكس ما يدور بالمجتمع الأكبر • الا أن هذين النقيضين اذا ما انحرفا فانهما يؤديان الى أنماط مريضة • فالأسرة المتطرفة فى استقلالها والتى ترفض التأثر بالمجتمع الذى توجد فيه تنتهى بالعزلة عن المجتمع بالتالى تفقد فعاليتها الحقيقية • بينما النقيض الآخر نجده الأسرة الشديدة التوافق مع المجتمع والتى لاتعدو ان تكون مرآة لما يدور فيه هى الاخرى تفقد فعاليتها واستقلالها على السواء ففى الحالة الاولى قد نجد الاسرة التى تعيش فى مجتمع غريب عنها (كأسر المهاجرين مثلا) فترفض تقاليده تماما وتتمسك بتقاليدها تنتهى بالعزلة وينشأ الأبناء غير متوافقين مع مجتمعهم الجديد ، أما اذا نجحوا فى التوافق فهم يجدون

أنفسهم فى عزلة عن أسرهم • وعلى العكس نجد أسرة أخرى (من المهاجرين أيضاكمثل) تتخلى تماما عن تراثها وتقاليدها وتسعى للاندماج مع المجتمع الجديد ولكن الثمن الذى تدفعه هو درجة من التشوية والقتل لهويتها وارتباطاتها الحقيقية • وفى الوسط قد نجد الاسرة التى تسعى للحفاظ على تقاليدها في المجتمع الجديد دون أن تترك ذلك يعرضها للعزلة فمارسها بدرجة من المرونة وتتفاعل مع المجتمع الاوسع فتتأثر به بالاضافة الى ذلك قد تؤثر عليه .

والاسرة اذن تتشابه مع الفرد فى نموها وتطورها وفى سعيها للتكيف مع المجتمع الاوسع قد تسعى مثلا الى تكوين علاقة الفة معه الا أن هذه الألفة كمثيلتها فى الفرد لا تكتمل الا بعد أن تتكون الهوية وليس قبلها والا أصبحت مجرد علاقة اعتمادية أو كفلية ومن جانب آخر فان الاسرة التى ترفض التآلف مع المجتمع تشبه الفرد الذى يتوقف عند مرحلة الهوية مثلا ويصر على العزلة وعدم الزواج فى سبيل الحفاظ على هويته (الهشة) •

الأسرة والطفل :

ان موقف الأسرة من الطفل (وهو أساسا موقف الأبوين) يتراوح بين القبول التام والرفض التام وبين هذا وذاك درجات اعتاد العلماء تقسيمها بطريقة وصفية • ومن منطلق مفهومنا للصحة النفسية سوف نعيد صياغته هنا بالنسبة لموقف الاسرة بين نقيضى القبول والرفض •

ان القبول الكامل لكيان من جانب كيان آخر يعنى علاقة كيانين مكتملين ومستقلين •

واذا أردنا تطبيق ذلك على الأسرة لافترضنا أن الكيانين المعنيين — أى الاسرة فى مقابل الطفل — غير متكافئين اذا أن أحدهما يعتمد على الآخر . الا أن هناك فرقا بين الاعتمادية المبنية على واقع وهو واقع يشمل التكوين النفسى للطفل وبين الاعتمادية المرضية التى لاتخدم غرض التكيف انما تعبر عن احتياجات طفلية وغير مشبعة لاحد الطرفين أو كليهما •

أى أن هناك تكافؤا ومساواة طالما أننا نقبل أن جزءا من واقع الطفل هو احتياجه الحقيقى لأبويه وقبول هذا الواقع هو قبول للطفل ككيان متكافىء ومتساو •

واذا قبلنا أن القبول لكيان آخر لايأتى الا من منطلق قبول الكيان لذاته أى ان مالك الشىء هو القادر على اعطائه فان الاسرة التى تستطيع ان تتقبل الطفل ككيان لذاته هى الأسرة التى تتقبل ذاتها ككيان أى انها قد حققت هويتها ازاء المجتمع ومارست درجة من النجاح فى التوافق معه والمساهمة فى تكوينه وانها مشبعة فى محاولات وجودها المختلفة بحيث لا تعوض عن نقصها فى الخارج بواسطة استخدام صغارها •

بالعودة مرة اخرى الى مفاهيم الصحة النفسية المبنية على مبادىء التحليل النفسى فاننا نستطيع أن نقول أن تلك الأسرة هى أسرة تنمو وتتطور مع احتفاظها بدرجة من التكيف وهى تمارس رغباتها بحد أدنى من الصراع بين

الأضداد فهى لاتكبت غريزة لحساب أخرى وتستطيع التعبير عـــن الجنس والعدوان بطرق مقبولة اجتماعيا أى دون صراع شديد بين الغرائز والآنا الاعلى وبالتالى فهى فى تفاعل كامل مع أفرادها مثلما هى فى تفاعل كامل مع باقى المجتمع ٠

مثل هذه الأسرة تستطيع ممارسة القبول التام acceptance تجاه أبنائها فهى من حيث أنها لاتخاف الغرائز العدوانية لن تتردد فى وضع الحدود والعقوبات ازاء سلوك الطفل غير المنضبط فتساهم بذلك منذ وقت مبكر فى ارساء السلوك الاجتماعى وهى من حيث أنها لاتخاف الجنس فهى لن تخاف الاقتراب من اطفالها ولن تخجلهم من وظائفهم الجسدية ٠ فالغرائز هنا فى حالة اندماج fusion وتجد التعبير تجاه موضوع object - related وليست محولة للداخل فى صورة نرجسية أو ما زوجية ٠

اذا انتقلنا الى النقيض الاخر وهو حالة الرفض rejection من جانب الاسرة للطفل فاننا من نفس المنطلقات النظرية نجد هذه الاسرةتمارس الحد الادنى من النمو والتطور مع حد أدنىمن التكيف وهى فى حالة صراع مع الهيئة وصراع بين الغرائز والاناالاعلى وبين الغرائز وبعضها أى ان الغرائز

فى حالة عدم اندماج diffuse والعلاقة بالموضوع محدودة أو منعدمة لو ترجمنا هذه المفاهيم عمليا فسوف نجدها أسرة منعزلة عن باقى المجتمع وفى عزلتها فهى تتحجر وتكف عن التطور الا أنها أيضا تجد نفسها فى صراع مع المجتمع أى تكف عن التكيف أيضا . وهى تخاف من التعبير ولذا فـــان غرائزها محولة الى الداخل ، ففى الحالة القصـــوى لمثل هـــذا الانعـــزال فسوف نجد أن أفراد الاسرة يمارسون هذا الانعزال بينهم فلا توجد علاقات حقيقية أو حميمة بينهم ومن ناحية الطفل فهم يهملونه اهمالا تاما فيتركونه بدون رعاية أساسية او حماية ٠ وقد يبدأ رفض الطفل منذ البداية فى أن يكون الحمل به غير مرغوب أو اذا جاء الحمل فقد نبذل المحاولات لاجهاضه واذا ولد فيهمل ٠٠ كأن يهجراه أو يتركاه لملجأ او يبقياه ولكن بدون رعاية تذكر ٠٠

كما أن الرفض قد يأتى نتيجة مرض أو انحراف فى الاسرة ذاتها كـــأن يكون أحد الابوين أو كلاهما ذهانيا أو متخلفا عقليا أو مفرطا فى الادمان . وقد يكون مصدر الرفض نابعا من الطفل ذاته فقد يولد مشوها أو متخلفا عقليـــا مما يثير الغضب المباشر او فعله الرديد (فى صورة الشعور بالذنب والافراط فى الحماية أو غير ذلك من جانب الابوين) ٠

وبين هذين النقيضين من القبول التام والرفض التام نستطيع ان نتدرج ومرة أخرى من منطلقات التحليل النفسى يمكن أن نرى التدرج فى تغليب غريزة على أخرى فى مواجهة الطفل ٠ فالانحراف الى اليمين (جزافا) قد يمثـــل تغلب الغريزة الجنسية فى التعبير الظاهر على أن يصاحب هذا تغليب الغريزة العدوانية على المستوى اللاشعورى والنتيجة أن نجد الرفض مقنعا فى صورة الافراط فى الحب بدرجاته المختلفة منها نمط الاسرة المفرطة فى الحمـــــاية over - protective فتبالغ فى حماية الطفل وتخشى عليه من العالم الخارجى

وتنمى النزعات الاعتمادية فيه . فالاسرة تعامل الطفل ظاهريا بما يبدو انه حب ورعاية زائدة بغرض الحفاظ على الطفل أو قد تفرط فى تربيته وبث القيم الصارمة فيه أيضا بهدف مصلحته ولكن باطن هذه المعاملة الرجيمة ظاهريا ليس الا قسوة .. والحب هنا ليس الا فعلا رديدا لكره كامن وان كان يعتبر درجة أرقى فى التعبير عن الكره من الكره المباشر أو الرفض التام للطفل .

كما ان هناك درجات مختلفة في التعبير عن الحب تمتد من التعبير المباشر عن الغريزة الجنسية الى التعبير المتسامى عنها ، وهنا تظهر انماط الاسر المفرطة فى الاغواء over - seductive وقد يكون هذا الاغواء مباشرا الى درجة حدوث العلاقات الجنسية الصريحة غالبا بين الأب وبناته أو بين الام وأبنائها (وهو اقل انتشارا) أو قد ينتقل الاغراء المتبادل والممارسة الى الاشقاء (وهو الاكثر انتشارا) أو قد يرتبط هذا النمط السابق (المفرطة فى الحماية) ولذلك بحكم أن الاسرة التى تمنع أبناءها من الاختلاط بالغير مع وجود اغواء بين أفراد الاسرة الواحدة انما تدفع أبناءها الى ممارسة رغباتهم داخل الاسرة وهناك درجات أقل من الاغواء لاتصل الى العلاقات الجنسية المباشرة ولكنها تثير تلك الشهوات دون أشباعها وتؤدى الى التعلق الشديد بين أفراد الاسرة الواحدة لدرجة خلق صعوبة فى تكوين علاقات عاطفية حميمة خارج الاسرة فيما بعد وأهمها بالطبع الزواج بالنسبة للابناء ولذا فان هؤلاء الاطفال حينما ينضجون يجدون صعوبة فى الاستقرار فى زواجهم فيهرعون الى أسرهم الأصلية عند كل اختلاف .. فى مثل هذا الاغواء الجنسى والعاطفى تتراوح أشكال التعبير من التلامس الجسدى المبالغ فيه كمياو كيفيا كالافراط فى التقبيل والاحضان وخاصة بعد سن المراهقة او مجرد الافراط فى الصداقة والتالف بين أفراد الاسرة الواحدة على حساب تكوين العلاقات الخارجية .. كما أن الاغواء ليس بالضرورة مرتبطا بالاعضاء الجنسية التناسلية .. وانما قد يرتكز على أعضاء أخرى مثل الفم وهنا يأخذ الاغواء صورة المبالغة فى الرضاعة كالتأخير فى النظام أو ارضاع الطفل فى غياب غرض اطعامه ولكن بغرض تهدئته أو اسكاته . وكذلك الاغواء الشرجي الذى يأخذ صورة الافراط فى الحقن الشرجية والمبالغة فى الاصرار على تنظيف الشرج مع مساعدة الطفل على ذلك رغم قدرة الطفل على الاعتماد على نفسه . والاغواء الجلدى قد يأخذ صورة الافراط فى الاستحمام والتنظيف واللمس والتدليك أو الدغدغة والعض والتقبيل المفرط . والاغواء بالنظر قد يأخذ صورة ممارسة الجنس بين الابوين فى وجود الاطفال أو درجات أقل وضوحا من ذلك كالمغازلة المفرطة .

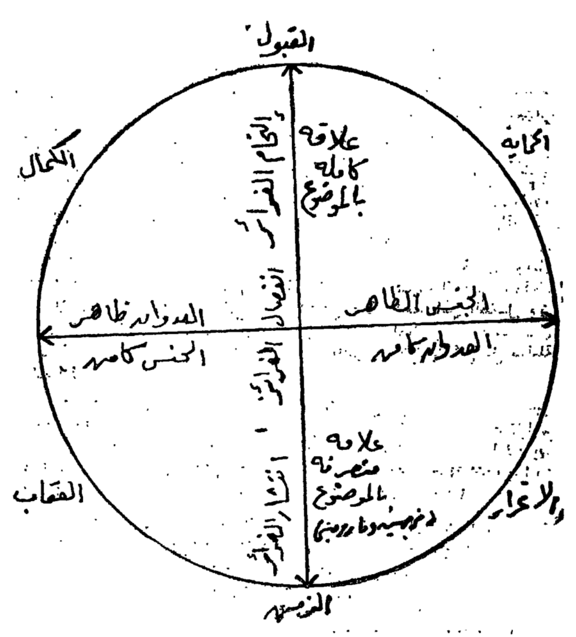
وهنا لابد ان نأخذ فى الاعتبار ان الافعال الرديدة قد تأتى بنفس النتيجة مثل الافعال المباشرة .. فالافراط فى اخفاء الجنس بصوره المختلفة وحرمان الطفل من اللمس والتقبيل من جانب الابوين بصورة مبالغ فيها (كما يحدث فى الحضارات الغربية) قد يؤدى الى صورة عكسية فالطفل يخاف التعبير الجنسى تجاه من يحب ويقصر الجنس على الشهوات الجسدية البحتة ، اى ان هذا الاغواء بالسالب قد يؤدى الى أن يمارس الطفل غرائزه فقط مع من لا يكون معهم علاقة عاطفية ندية كأن يقصر الجنس على المومسات .. وهنا أيضا فان

ما يبدو على السطح على أنه حب (وان كان جنسيا) تجاه الطفل ما هو الا ممارسة غير مباشرة (شعورية) للعداوات فهو اعتداء على الطفل وهتك له .

واذا انحرفنا على الجانب الاخر (الايسر جزافا) نستطيع أن نفرض عليه الغريزة العدوانية ظاهريا مع كبت الغريزة الجنسية والتعبير عنها لاشعوريا . فالعدوان على الطفل قد يبدأ بالفعل الرديد للنزعات العدوانية بواسطة ابداء نزعات معاكسة من الافراط فى الرعاية .. وتبدأ بنمط يشبه المقال السابق وهو الافراط فى الحماية ولكنه هنا قد يأخذ صورة الافراط فى الكمال perfectionistic فباسم رعاية الطفل وتربيته وحمايته من الانحراف فان الاسرة تمارس عليه درجات مختلفة من القهر والقمع والكبت ، فلا يسمح له بأية درجة من التعبير المباشر عن غرائزه فاذا ارتفع صوته أو زادت حركته أو مارس فضوله وفوضويته فانه يعنف وينهر حتى يصبح طفلا مطيعا أو خاضعا أو على أحسن الاحوال طفلا (مثاليا) ولكنه كالالة خال من التلقائية وملىء بالخوف والعدوان المكبوت .. ومرة أخرى فان الذى يبدو من هذا الاخضاع الظاهرى لطفل على انه تعبير عن العدوان تجاهه فان الغريزة الجنسية تجد التعبير المقنع لها فى أن الطفل لن يحصل على الحب الا اذا كان خاضعا أو مؤدبا (على أحسن الفروض) وبواسطة هذا الخضوع فهو يزداد تعلقا بأسرته ويخاف الانحراف عن قيمها أو حتى ممارسة وجوده المستقل . فهذا الطفل حينما ينمو يخاف الاستقلال برأيه عن أسرته ويصبح شديد الارتباط بقيمها وكثيرا ما يلجأ اليها فى القرارات الهامة .

واذا انتقلنا درجة أخرى على مدى متصل التعبير الظاهرى عن العدوان سوف نجد نمط الاسرة المفرطة فى العقاب over - punitive فبدلا من الاكتفاء بغرس الكمال فى الاطفال وطلب مالا يستطاع منهم فان هذه الاسرة تبالغ فى هذا الطلب وتمارس قهرها للطفل بطريقة مباشرة تختلف فى الدرجة .. فقد تبدأ بالشدة على المستوى المعنوى فتعاقب الطفل عند كل مخالفة بأن تحرمه من الحب والعطف ثم تتدرج بأن تمارس تجاهه الحرمان من المزايا المختلفة التى كان يحصل عليها (مثل اللعب والفسحة) ثم تتدرج الى حرمانه من الاساسيات مثل الطعام او الحركة (بحبسه مثلا) وقد يكون العقاب جسديا بطريقة مباشرة فى صورة الضرب وقد يبدأ بالضرب المقنن والمحكوم مثل الضرب على الايادى او المؤخرة أو القدمين (الفلكة) ويتدرج الى الضرب العشوائى الذى يؤدى الى اصابات وأذى جسدى قد يصل فى بعض الاحيان الى درجة القتل .

ومرة اخرى فان الغريزة الجنسية ليست منعدمة ولكنها لا شعورية ولعل المثل القائل بأن (ضرب الحبيب زى أكل الزبيب) يشير الى هذه الحقيقة فان عقاب الاباء لابنائهم كثيرا مايحوى رغبة جنسية مكبوتة أو قد يكون فعلا رديدا لها . ولعل الضرب على المؤخرة الذى كان (ومازال) منتشرا فى الحضارات الغربية كثيرا مايثير الرغبات الجنسية الشرجية والتى تساوى (الجنسية المثلية) فى الاطفال .



شكل يبين التدرج فى أنماط الاسرة بين القبول والرفض

التكوين الاسرى :

ان المواقف الاسرية التى ذكرناها تعبر اساسا عن التكوين النفسى للابناء الا ان هناك عوامل فى تكوين الاسرة تؤدى دورها فى حد ذاته بغض النظر عن تلك العناصر الشخصية وتلك العوامل خاصة بالشكل العام للاسرة وسوف نعرض بعض هذه الاشكال :

الأسرة غير المكتملة :

هي التي يقتصر تكوينها علي الزوج والزوجة بدون اطفال ، ولعل اثر

مثل هذه الاسرة على نفسية الاطفال يظهر فى حالة وجود أقارب لهم أطفال اذ أن موقف تلك الاسرة من هؤلاء قد يتراوح ما بين الاعراض عن الاطفال وتجنبهم أو المبالغةفى رعايتهم والاقبال عليهم وحالة أخرى تؤثر فى تلك الاسرة على الطفل هى حينما يقرران التبنى وقد يكون هذا القرار مبنيا على انعدام القدرة على الانجاب أو انعدام الرغبة فى الحمل (لتجنب مخاطر صحية أو أمراض موروثه مثلا) والآثار التى تنتج عن هذا الوضع تتوقف على موقف الاباء وعلى قدرتهم على مصارحة الطفل المتبنى من عدمه وكذلك على البيئة الجديدة (اقارب الاباء الجدد) التى يوجد فيها ، وعما اذا كان الطفل مولودا شرعيا أو لا يعرف له أصل ، اذ أن هناك بعض حالات التبنى تحدث بين المعارف أو الاقارب حينما تكون هناك اسرة خصبة ولديها أطفال عديدون وأخرى ليس لديها أطفال ، وعنصرا آخر هو سن الطفل عند التبنى وهنا تدخل عوامل الانتماء الطبقى الاجتماعى الاصلى للطفل بالمقارنة مع أسرته الجديدة ، ولعل أهم المشاكل التى قد تنشأ فى حالات التبنى هذه احساس الطفل بأن أسرته الحقيقية رفضته أو أن أسرته بالتبنى لا تريده باخلاص . وقد تقل هذه الصعوبة فى حالة وجود أشقاء آخرين بالتبنى علاوة بالطبع على معاملة الاسرة له .

الا أن العكس أحيانا قد يحدث . اذ انه حتى فى حالة الاطفال غير المتبنين فاننا نستطيع أن نجد تخيلا لديهم بأنهم ليسوا أبناء حقيقيين لابائهم وأنهم التقطوا وقد يعتقدون أنهم ملك للانسانية كلها وليسوا ملكا لأبويهم فقط ولعل التاريخ والاساطير مليئة بما يغذى هذه التخييلات اذ ان كثيرا من الانبياء والابطال بشكل أو آخر لم يترعرعوا فى ظل أبويهما تماما .

وهناك وضع مقارب لهذه الحالة حينما يكون أحد الابوين قد انفصل عن طفله اما بسبب اموفاة أو المرض أو الطلاق أو الهجرة ويستمر الطفل مع الآخر الذى قد يتزوج أو تتزوج مرة أخرى وينجبان أطفالا آخرين ..وهنا مرة أخرى قد ينشأ لدى الطفل الاحساس بأن الاب الذى تركه انما فعل ذلك لانه لا يرغبه وقد يضفى عليه (أو عليها) صفات غير واقعة اما بالخير المبالغ فيه أو بالشر المبالغ فيه بينما قد يضفى المعاكسة على العضو الجديد فى الاسرة .

الاسرة الصغيرة :

أن يكون الانجاب محدودا بطفل واحد ــ اما لاسباب خارجة عن ارادة الوالدين (قلة الخصوبة أو المرض أو السن) او لرغبتهما فى عدم الانجاب وهو أمر اصبح اكثر يسرا مع انتشار وسائل منع الحمل الحديثه ــ وفى هذه الحالة تنشأ مشاكل الطفل الوحيد فهو لم يأخذ فرصة كافية لتعلم المشاركة والتغلب على احساسه بانه مركز لاهتمام والديه بل ان خلعه عن عرشه الاساسى حينما كان مركز اهتمام أمه لم يأت الا على يد أبيه وهو منافس لاحيلة له أمامه ، ومع افتقاره للمنافسة مع اطفال اخرين فهو أيضا يتعلم ان يحصل على حاجاته دون جهد يذكر .

وقد يتخذ الأبوان منه موقف الحماية المفرطة أو التقويم المفرط over-punitive أو التساهل والدلال المفرط over - indulgent وهذا سوف يتوقف بالطبع على عوامل أخرى منها أسباب كونه طفلا وحيدا • ومما قد يضيف الى مثل هذا الافراط فى العواطف وردود الفعل أن يكون الطفل قد أتى رغما عنهم (مثلا فى حالات الزواج الاضطرارى وخاصة بسبب حدوث الحمل قبل الزواج) أو قد يكون الحمل حدث بعد محاولات عديدة وربما لم تكتمل أو اكتملت ولم يعمر الطفل السابق . أو يكون الابوان قد تقدما فى السن ولايريدان أو يستطيعان الانجاب بعد ذلك •

واذا زاد حجم الاسرة عن ذلك قليلا فان مسألة اكتمالها تتوقف عما اذا كان الطفلان من جنس واحد أو جنسين علاوة على موقف الابوين والمجتمع بصفة عامة من جنس الابناء •• فهناك بعض المجتمعات أو الفئات الاجتماعية وخاصة تلك التى تعطى قيمة اكبر للذكور ــ تفضل انجاب الذكور أو على الاقل أن يكون الطفل الاول ذكرا •

وقد توجد هذه الرغبة فى انجاب طفل من جنس مالدى الابوين وقد تكون معلنة أو كامنة فاذا ماجاء الطفل المنتظر عيس ما كان مطلوبا فان ذلك قد يلون علاقة الابوين بالطفل بشكل أو آخر وأهمها أن يعاملا الطفل كما لو كان من الجنس الذى يتمنياه فيتلون الطفل بالتالى بصفات الجنس المعاكس •

وفى هذا الحجم من الاسرة تنشأ مشكلة الترتيب فى الاسرة فهناك مشكلة الطفل الاكبر ومشكلة الطفل الاصغر . . فالطفل الاكبر ولد فى وقت لم يكن له منافس (بمعنى أن يكون مقاربا له فى السن والوضع ، اذ أن الاب يعتبر منافسا الى حد ما) وعلى حساب ميعاد ولادة الطفل الذى يعده فانه يستمتع بهذا الشعور لفترة تطول او تقصر ، فاذا كان ميلاد الطفل الثانى مقاربا فانه فى حقيقة الامر لا يستمتع بهذا الشعور لانه سرعان مايعى وجوده حتى يجد من يشاركه فيه واذا كان ميلاد الطفل الثانى يأتى بعد فترة طويلة فانه قد يتعود على وضع الطفل الوحيد ولم يسعد ويشعر بالتهديد من هذا الزائر الصغير . . واذا كان مناسبا (لعل مدة ثلاث سنوات تقريبا هى الرقم المناسب) فانه يستطيع أن يجمع بين احساسه بالقيمة لدى والديه واحساسه بالمشاركة مع شقيقه الا انه سوف تبقى لديه سمة مميزة وهو انه الاول والاكبر والافضل وهو وضع يميل الى التمسك به باستمرار فينشأ بميول محافظة (سياسيا واجتماعيا) اما الطفل الاصغر فقد ولد ووجد أصلا من كانت له المكانة الاولى لدى والديه وعليه هو أن يلحق به فهو بالتالى دائم التطلع ودائم التمرد على من هو أكبر منه ويميل الى اللحاق بمن هو أفضل منه فيسمى بالجهد والطموح الى التفوق ، الا انه بحكم وضعه كطفل صغير (آخر العنقود) فهو يملك مكانة خاصة لدى الاسرة ويحصل على حقوقه لمجرد أنه الاصغر والاضعف ، كما أن انعدام وجود أطفال اصغر منه فى حاجة الى رعاية خاصة يجعل والديه يركزان اهتمامهما عليه فى رغبتهما فى الحفاظ على شبابهما فيسعيان للحفاظ على طفولته اكبر قدر يمكن ولعل هذا يدفعه فيما

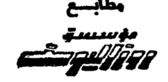
بعد الى أن يعتقد اعتقادا راسخا انها في الامد الطويل في صفه فهو كطفل اصغر ومستضعف ليس عليه الا أن ينتظر وسوف تعود الامــور الى نصابها ويصبح قويا وكبيرا مثل اخيه الاكبر . ولذا قد نجده يميل الى الفكر التقــدمي والثوري (سياسيا واجتماعيا) فيما بعد .

اما الاطفال الذين يأتون في الوسط فهم يعيشون المشكلة من الجانبين فعليهم ممارسة دور الطفل الاصغر في مقابل الشقيق الاكبر وبعد ميلاد الطفل الاصغر فعليهم ممارسة دور الطفل الاكبر معه فهم بين غيرة الشقيق الاكبر منهم ومحاولاته لدفعهم الى الخلف وابعادهم عن عرشه وبين حسد الشــقيق الاصغر لهم ومحاولاته خلعهم من مكانتهم .. ووسط هذا الاحباط المزدوج فانهم يتيقنون ان لا مكان خاصا لهم تحت الشمس الا بالكد والعرق ولعلهم لهذا يفضلون وسط الامور على المستوى الاجتماعي والسياسي فلا هم يريدون الحفاظ على الوضع القائم كما هو لانهم ليسوا على قمته (ليسوا في وضــع الشقيق الاكبر) ولاهم يريدون تغييره بالتمرد الصريح والاسوف يتعرضون لان يخلعهم من دونهم (الشقيق الاصغر) من مكانتهم التى حصلوا عليهــا بالجهد والعرق .

فهرس

رقم الايــداع بـدار الكتب ١٩٧٧/٣٢١٩
الترقيم الــدولى ٩ ــ ٠٣٥ ــ ٣٢١ ــ ٩٧٧

مطابــع
مؤسسة



كلمة ظهر الغلاف

عـن الكتاب

كل اسرة تحاول أن تفهم طفلها .
لان الحب هو الاحساس الطبيعى الذى يملؤنا عندما يكون لنا أبناء .
لكن الحب يصطدم عندنا دائما بعقبة اسـمها « عدم الفهم » .
نحن نثور احيانا .
نحن نقف حيارى امام الابناء فى احيان كثيرة .
أكثر من ذلك .
نحن نحتار فى فهم انفسنا وأدوارنا المختلفة فى الحياة .
نحن لاندعى ان صفحات هذا الكتاب تضـم الطرق المثلى لمواجهة كل مشاكل الحياة ، أو أنه كتاب يملك الحلول الجاهزة لكل مشـكلة مـن مشكلات تربية الابناء .. لكن نقول ان هـذا الكتاب هو محاولة علمية مخلصة تلقى ضـوءا جديدا على اعماق الانسان انه كتاب يساعدك أن تفكر جيدا لتفهم اطفالك ونفسك .





الثمن ٣٥ قرشا